التحليل التداولي لخطبة واصل بن عطاء

The analytical study of the sermon of wassail ibn Ata

إنجاز الباحثة: زوليخة قادة

ملخص البحث: يروم هذا البحث الكشف عن مظاهر وأبعاد التداوليات في التراث الأدبي العربي من خلال دراسة تداولية لأشهر الخطباء في العصر الأموي واصل بن عطاء، وهي دراسة استعنت فيها بأهم النظريات التي تؤسس للتداوليات مثل: أفعال الكلام واستراتيجيات الخطاب ومعاييره.

Abstract: This research aims to uncover the aspects and dimensions of pragmatical devices in Arabic literary heritage through a pragmatical study of the most famous orators in the Umayyad era, such as wassail ibn Ata. The study relies on key theories that form the basis of pragmatical analysis, such as speech acts, discourse strategies, and their criteria.

الكلمات المفتاحية: الخُطبة- التداوليات- أفعال الكلام- استراتيجيات الخطاب.

Key words: sermon- pragmatics- speech acts- discourse strategies.

تقديم: حد الخطبة:

إذا عدنا لدلالة كلمة (خُطْبَة) لغة وجدنا المعاني الآتية: "الخُطبة اسم للكلام، الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر...وذهب أبو إسحاق إلى أن الخطبة عند العرب: الكلام المنثور المُسَجَّع، ونحوه. التهذيب: والخطبة، مثل الرسالة، لها أول وآخر"[1].

أما الزمخشري فقد أورد كلمة خَطَبَ بمعنى: "خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام"[2].

إن هذه المعاني اللغوية تحيل على بعض من خصائص فن الخُطبة هي:

- أنها فن يهدف للتواصل مع متلقٍ ما.
- له بداية ونهاية.
- كلام منثور مسجوع.

---

[1] ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ المجلد الأول ـ ص: 361.

[2] ـ أساس البلاغة ـ الزمخشري ـ تحقيق: محمد باسل عيون السود ـ الجزء الأول ـ دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ سنة النشر: 1419هـ / 1998م ـ ص: 255.

- استعمال الكلام الحسن.

إن هذه الخصائص بينها وبين الدلالة الاصطلاحية صلة وصل، كما أن حضور البعد التداولي فيها بين وواضح من خلال العناية بالمخَاطَب، وتخير الحسن من الكلام، الذي يؤثر بمعانيه ومبانيه، وهذا ما سأفصل الحديث فيه فيما سيأتي من كلام.

أما اصطلاحا فقد أورد التهانوي أن الخُطبة هي: "عبارة عن كلام مشتمل على البسملة والحمدلة والثناء على الله تعالى بما هو أهله والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتكون في أول الكلام"[3].

يركز التهانوي في تعريفه للخُطبة على بيان خصائص الاستهلال فيها، فهي مقترنة بالبسملة والحمدلة والتصلية، وهذه العناصر أساس في الخطبة عند العرب، إذ إن أية خطبة خلت من هذا سميت عندهم بالبتراء، فكأن الخير فيها منقطع لانقطاع صلتها بذكر الله عز وجل.

أما الكفوي فيرى أن الخُطبة هي: "كلمات تتضمن طلب شيء لكنها في طلب النساء بالكسر، وفي غيرها بالضم، والفعل في الكل من حد (طَلَبَ)"[4].

يبدو أن الكفوي يحصر المعنى العام لمادة (خطب) في الطلب، وهو معنى شامل لكل الخطب على تعدد مضامينها، وهو ما سيتضح أكثر فيما سيأتي من تحليل.

التحليل التداولي لخطبة واصل بن عطاء:

نص الخطبة:

ذكر الكلاعي خطبة لواصل بن عطاء الذي كان ألثغ في حرف الراء، فكان يتجنبه في خطبه لقوته وفصاحته، ومما قاله: "الحمد لله، القديم بلا غاية، الباقي بلا نهاية، الذي علا في دنوه، ودنا في علوه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما خلق، ولم يَخْلُقْ على مثال سبق، بل أنشأه ابتداعاً، وعدّ له اصطناعاً، فأحسن كل شيء خلقه، وأتم مشيئته، وأوضح حكمته، فدلّ على إلهيته. فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه. تواضع كل شيء لعظمته. وذلّ كل شيء لسلطانه، ووسع كل شيء فضله، لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم.

---

[3] ـ كشاف اصطلاحات الفنون ـ التهانوي ـ ص: 752.

[4] ـ الكليات ـ الكفوي ـ تحقيق: عدنان درويش ومحمود المصري ـ مؤسسة الرسالة ـ لبنان ـ الطبعة الثانية ـ سنة النشر: 1419ه/ 1998م ـ ص: 433.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا مثيل له، إلهاً تقدست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، علا عن صفات كل مخلوق، وتَنَزَّه عن شَبَه كل مصنوع. فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يُعصى فيحلُم، ويُدعى فيَسمعُ، ويقبلُ التوبة عن عباده ويعلمُ ما يفعلون. وأشهدُ شهادة حق، وقول صدق، بإخلاص نية، وصدق طوّية، أن محمد بن عبد الله عبدُه ونبيه، وخالصه وصفيه. بعثه إلى خلقه بالبينات والهدى ودين الحق. فبلَّغ مألكته، ونصح لأمته حتى أتاه اليقين. وصلى الله على محمد وآله أفضل وأزكى، وأتم وأنمى، وأجل وأعلى صلاة صلاّها على صفوة من أنبيائه، وخالص ملائكته، وأضعاف ذلك، إنه حميد مجيد.

أوصيكم، عباد الله مع نفسي بتقوى الله، والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته، وأحضكم على ما يُدْنِيكُمْ منه ويزلفكم لديه. فإن تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة لمعادٍ. ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وخِدعِها، وفواتن لذاتها، وشهوات آمالها، فإنه متاع قليل، ومدة إلى حين، وكل شيء منها يزول. فكم عاينتم من أعاجيبها، وكم نصبتْ لكم من حبائلها، وأهلكت من جانح جنح إليها، ومعتمد اعتمد عليها. أذاقتهم حلواً، ومزجت لهم سماً. أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحُجَّاب، وأعدّوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد؟ قنصتهم بمخلبها، وطحنتهم بكلكلها، وعضّتهم بأنيابها، وعاضتهم من السعة ضيقاً، ومن العز ذلاً، ومن الحياة فناء. فسكنوا اللحود، وأكلتهم الدود، وأصبحوا لا تُعَايَن إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحس منهم من أحدا ولا تسمع لهم نبساً.

فتزودوا عافاكم الله! فإن أفضل الزاد التقوى، واتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون. جعلني الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه، ويعمل لِحَظِّه وسعادته، وممن يستمع القول فيتبع أحسنه (أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب). إن أحسن قصص المؤمنين، وأبلغ مواعظ المتقين كتاب الله، الزكية آياته، الواضحة بيناته، فإذا تُلِيَ عليكم فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تهتدون.

أعوذ بالله القوي من الشيطان الغوي، إن الله هو السميع العليم. بسم الله الفتاح المنان (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد). نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، والآيات والوحي المبين. وأعاذنا الله وإياكم من العذاب الأليم وأدخلنا وإياكم جنات النعيم. أقول ما فيه أعظكم، وأستعتب الله لي ولكم"[5].

[5] - الكلاعي - إحكام صنعة الكلام - ص: من 172 إلى 175.

إن هذه الخطبة من أشهر ما قيل في القرن الثاني للهجرة، وهي من الخطب التي اهتم بها النقاد كثيرا قديما وحديثا، ليس فقط لما تقدمه من معطيات دينية، ولكن أيضا لأن واصل تسنم فيها قمم الإبداع والبلاغة، حتى أصبحت قطعة نثرية فريدة فخمة جزلة، ومما زاد من فرادتها أنها محض الارتجال، وهذا ما يدل على أن واصل وهبه الله تعالى ملكة متميزة مكَّنته من تَخَيّر ألفاظ اللغة، فلا يقطف منها إلا ما يعينه على إخفاء لثغته، مع عفوية لا نظير لها.

ومما أحسب أنه يمثل بعدا تداوليا لهذه الخطبة، اعتماد الخطيب لتلوينات أسلوبية متنوعة معنى وبيانا وبديعا، مع اعتماد آليات الانسجام والاتساق المختلفة، نضيف لكل هذا تنوع مواقع الخطاب بما يتناسب مع المخاطب، والاهتمام بمعايير الكم والكيف والطريقة والملاءمة والتأدب، وهذا ما سأفصله فيما سيأتي:

- التلوينات البلاغية:

الاقتباس: استند الخطيب على تضمين خطبته شيئا من القرآن الكريم، ولكنه كان حذقا حين غَيَّر مما اقتبسه بما يتناسب مع لثغته، فاستعاض عن كل الكلمات التي فيها راء بكلمات أخرى تخلو من هذا الحرف، والاقتباس عامة سلطة حجاجية يستمد قوته من سلطة النص الأولى، جاء في كتاب " استراتيجيات الخطاب" ما يأتي: " عند التلفظ بخطاب ذي بعد سلطوي في أصله، عندها يتبوأ المرسل بخطابه مكانا عليّا، ويستمد من سلطة الخطاب المنقول على لسانه فقط. وبالتالي تصبح سلطة الخطاب الذي يتوارى المرسل وراءه"[6]، وقد كان مما اقتبسه واصل بن عطاء:

نص واصل بن عطاء	النص القرآني المقتبس منه
– فأحسن كل شيء خلقه.	– **" الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ" السجدة/ 07.**
– فسبحانه لا معقب لحكمه.	– **" أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ " الرعد/ 41.**
– لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم.	– **" وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ " سبأ/ 03.**

[6] ـ عبد الهادي بن ظافر الشهري ـ استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية ـ الجزء الثاني ـ دار كنوز المعرفة ـ الأردن ـ الطبعة الثانية ـ سنة النشر: 1436ه/ 2015م ـ ص: 329.

- يقبل التوبة عن عباده ويعلم ما يفعلون.
- وأصبحوا لا تعاين إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم.
- ولا تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم نبسا.
- فتزودوا عافاكم الله ! فإن أفضل الزاد التقوى.

- " وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ " الشورى/ 25.
- " تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ " الأحقاف / 25.
- "وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا " مريم/ 98.
- " الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ " البقرة/ 197.
- " قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " المائدة/ 100.
- " الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ " الزمر/ 18.

- واتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون.

- ممن يستمع القول فيتبع أحسنه.
- الصور البيانية: لم يمنع ارتجال الخطبة واصل بن عطاء من إحكام صنعة خطبته بأساليب بيانية مثل: الكناية والاستعارة والمجاز.

* من الكناية قول الخطيب: "نصح لأمته حتى أتاه اليقين"، فاليقين هنا كناية عن الموت، وسمي يقينا لأنه أمر حتمي لا مراء فيه ولا جدال، ولا يختلف عليه اثنان، فهو من الأمور البدهية المُسَلَّم بها.

ومن الكناية أيضا قول الخطيب: "لا تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم نبسا"، فقد كنى واصل عن الموت بذكر شيء من لوازمه وهو انقطاع رؤية الميت وسماع صوته، وفي هذه الكناية زيادة تأكيد وإثبات لحقيقة الموت الذي ينهي لذة الدنيا وزينتها.

* الاستعارة: تحدث واصل عن خداع الدنيا وسلبها لألباب الراكنين لها، فتوسل باستعارات جميلة مثل: كم نصبت لكم من حبائلها – أذاقتهم حلوا - مزجت لهم سما - قنصتهم بمخلبها – طحنتهم بكلكلها – عضتهم بأنيابها، وهي استعارات تفيد التحذير من الدنيا ومن فتنها الكثيرة التي تمزج السم بالعسل.

إن الدنيا عند واصل شديدة الخبث، شديدة الخداع لمن ركن إليها، لذلك فهو يستعين بما توفره اللغة من وسائل بيانية لتقريب هذه الصورة من المخاطَب، حتى تتحقق النتيجة، فيرى الدنيا على حقيقتها سرابا يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

وسأعمد إلى بيان بلاغة هذه الاستعارات الجميلة حتى أثبت أن الكلاعي وهو يصطفي خطبة واصل كان موفقا تمام التوفيق، فهي من الخطب التي ينبغي أن تتخذ أنموذجا لكل من يريد أن يتقن صنعة الخطابة.

الاستعارة	عناصرها
نصبت لكم من حبائلها	يستعير الخطيب نصب الحبائل وينسبه للدنيا، فكأنها صائد يترصد لفريسته حتى يوقعها في حبائله، وهي استعارة مكنية وجه الشبه فيها جميل ودقيق بين الدنيا والصائد، فكلاهما يُغْرِيَان الفريسة بالاقتراب ويتخيران ما يغويها ويُذْهِبُ عنها صواب النظر وسداد الرأي فلا ترى المصيدة على حقيقتها، ومتى ما اقتربت مما تعتقده حسنا، تكشفت لها حقيقة الأمر، ولكن بعد فوات الأوان.
أذاقتهم حلوا	استعار الخطيب لفظ الإذاقة لما تحدثه الدنيا من خداع يفتن الناس، فيركنون لها وينسون حقيقتها، وفي لفظ ' أذاق' زيادة بلاغة لأن الإذاقة تستلزم الإدراك باللمس فكان لفظ أذاق أعم وأشمل. كما أن الإذاقة تدل على عمق الإحساس بمغريات الدنيا، فهي كالطعام الذي ينزل إلى جوف الإنسان فَتُدْرَكُ كل صفاته، ويتلذذ الإنسان بطعمه.
مزجت لهم سما	استعار واصل مزج السم للتعبير عما تضمره الدنيا من هموم ومصائب ونوائب للإنسان، وهي استعارة تثبت تقلب الدنيا وغدرها بالآمنين لها.
قصنتهم بمخلبها وعضتهم بأنيابها طحنتهم بكلكلها	استعارة مكنية يُشَبِّه فيها الخطيب الدنيا بحيوان ضار مفترس يفتك بما يقع بين يديه، وهي استعارة تخيلية القصد منها نقل الدنيا من صورتها المجردة إلى صورة حسية قصد ترهيب الناس منها، وتحذيرهم من أفعالها. في هذه الاستعارة الموجزة ملامح بلاغة كثيرة أهمها استعارة الطحن للدنيا، فهي تفعل بالراكنين لها ما تفعله الرحى بالحبوب، تدخل مكتملة ثم تخرج ذَرَّاتٍ ودقيقا، أما الكلكل فهو صدر الحيوان الذي ينوء بثقله على الإنسان فيحطمه، وكلا الكلمتين تدلان بدقة عن فعل الدنيا بأصحابها، نضيف لهذا ثقل الحروف التي تُكَوِّنُ الكلمات، وتكرار بعضها كالكاف والهاء، يتعاضد كل هذا ليثبت حقيقة واحدة وهي فتنة الدنيا وفتكها بالمغترين بها، وهو ما بينه واصل بمعنى العبارة وجرس ألفاظها.

* المجاز: استعمله الخطيب في جمل متلاحقة متتابعة، وتخير منه المجاز العقلي القائم على السببية في قوله: أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحجاب، وأعدو الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد؟ فقد نسب واصل هذه الأفعال للملوك على سبيل السببية فقط، واختار لهذه الأفعال زمن الماضي ليدل على معاني الانتهاء والزوال والموت، فهي على ثبوتها وتحققها في الواقع إلا أنها انتهت بموت أصحابها، وفي هذا غاية الاعتبار والوعظ والدعوة للتفكر، فما حل بهؤلاء الملوك الذين دنت لهم الدنيا وأسفرت لهم عن زينتها، فانتهى هذا في غمضة عين، هو ما سيحدث لنا جميعا.

ومن المجاز أيضا قول الخطيب: "أعاذنا الله وإياكم من العذاب الأليم" فقد أسند المصدر 'أليم' للعذاب، والعذاب يكون مؤلما ولكنه لا يَأْلَمُ، والمؤلم هنا هو الذي بيده العذاب، وهو الله عز وجل أي المُعَذِّب، وفي نسبة الفعل للمصدر زيادة في الترهيب من شدة العذاب، وتذكير بما ينتظر الراكنين للدنيا وزينتها، وهذا مجاز علاقته المصدرية.

- الإنشاء والخبر: نَوَّعَ واصل بن عطاء بين الخبر والإنشاء، وقد كان لاستعمال كلا الأسلوبين دلالة، كما كانا ملائمين لسياق التلفظ، وقد نوع الخطيب في درجات الخبر وأضربه بين الابتدائي والطلبي والإنكاري، كما أنه استعمل الأساليب الإنشائية المتنوعة ذات الدلالات غير الحقيقية وهو ما سأبينه فيما سيأتي:

سلوب	نوعه	دلالته
تهلال الخطبة كلها خبر: الحمد لله، القديم بلا غاية، اقي بلا نهاية، الذي علا في دنوه، ودنا في علوه، فلا شبه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما لق، ولم يخلق على مثال سبق، بل أنشأه ابتداعاً، وعدّ اصطناعاً، فأحسن كل شيء خلقه، وأتم مشيئته، وضح حكمته، فدلّ على إلهيته. فسبحانه لا معقب كمه، ولا دافع لقضائه. تواضع كل شيء لعظمته. لّ كل شيء لسلطانه، ووسع كل شيء فضله، لا يعزب ه مثقال حبة وهو السميع العليم. وأشهد أن لا إله الله وحده، لا مثيل له، إلهاً تقدست أسماؤه، ظمت آلاؤه، علا عن صفات كل مخلوق، وتنزه عن به كل مصنوع. فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به عقول ولا الأفهام، يُعصى فيحلم، ويدعى فيسمع، قبل التوبة عن عباده ويعلم ما يفعلون. وأشهد شهادة ق، وقول صدق، بإخلاص نية، وصدق طوّية، أن حمد بن عبد الله عبده ونبيه، وخالصه وصفيه. بعثه خلقه بالبينات والهدى ودين الحق. فبلغ مألكته، صح لأمته حتى أتاه اليقين. وصلى الله على محمد وآله ضل وأزكى، وأتم وأنمى، وأجل وأعلى صلاة صلاّها على فوة من أنبيائه، وخالص ملائكته، وأضعاف ذلك، ه حميد مجيد.	الجمل هنا خبرية تتنوع بين الابتدائية والطلبية والإنكارية، والابتدائية هي الأكثر حضورا.	الخبر هنا أكثر دلالة من الإنشاء على المعاني التي يريد واصل ذكرها، فالحمد في بداية الخطبة لاتصاله بـ(ال) التي تفيد الاستغراق والشمول أكثر دلالة على شمولية الحمد والثناء على الله عز وجل، ثم تأتي جملتا "القديم بلا غاية، الباقي بلا نهاية" ابتدائيتان خاليتان من أي توكيد، رغم أن المخاطبين قد يشكون أو ينكرون صدق هاتين الجملتين، ولكن الخطيب آثر أن يُنْزِلَ الجميع منزلة المخاطَب المُصَدِّقِ ابتداء لكلام الخطيب، أولا لأن الخطبة قيلت أمام جمهور مسلم يفترض فيه التصديق بهذه الجمل لأنها من البدهيات الدينية، وثانيا لأن المنطق يقول بتنزيه الخالق عن الحدود الزمانية والمكانية التي تحد المخلوق، ولهذا تَحَرَّزَ واصل حين ربط القِدَمَ بنفي الغاية، والبقاء بنفي النهاية، وبين الجملتين كمال اتصال مكن واصل من حذف واو العطف بينهما، وهذا من بلاغة إيجاز الحذف، يتصل هذا الثناء والمدح لله عز وجل، بجملتين خبريتين ابتدائيتين أخريين هما: الذي علا في دنوه، وعلا في دنوه. إن هذه المقابلة البديعة تثبت قرب الله عز وجل لعباده، وفي الآن نفسه استعلاءه وعظمته وجلاله. ثم تأتي الجمل المنفية: لا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما خلق، ولم يخلق على مثال سبق، لا معقب لحكمه، لا دافع لقضائه، لا يعزب عنه مثقال ذرة، لا تحيط به الأفهام، لا مثيل له، لا تبلغه الأوهام. وتكرار النفي هنا إثبات لصفات الجلال والجمال والعظمة لله عز وجل، كما أن فيها لفتا للعقول، وشدا لانتباه المخاطبين، والمزاوجة بين النفي والتوكيد لضمان تَوَقُّدِ ذهن المخاطبين، فلا يركنوا أو يملوا من استعمال الأسلوب نفسه وفي هذا التبديل والتغيير دليل على البلاغة العالية للخطيب. ثم تتوالى الجمل المثبتة الابتدائية غالبا، التي تستهل بفعل ماضٍ: وَعَدَّ له اصطناعا، ذَلَّ كل شيء لسلطانه، وسع كل شيء فضله. وهذه الأفعال الماضية دليل ثبوت الشيء وتحققه، وهو دليل حصول العظمة والجلال منذ الأزل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. في مقابل الزمن الماضي، نجد جملا خبرية تستهل بالزمن المضارع مثل: يحويه، يحيط، يؤوده، يخلق، أنشأ، أحسن، أتم، أوضح، تنزه، لا تحيط، لا تبلغ، يحلم، يسمع، يقبل... وهي دليل استمرار الفعل وسيرورته وتجدده واستمراره. ثم تأتي الجمل الخبرية التي تبدأ بصيغة فعل تعجب (أَفْعَل) مثل: أفضل، أزكى، أتم، أنمى، أجل، أعلى لتدل على تفخيم وتعظيم شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويستمر تدفق الجمل الخبرية الطلبية (أوصيكم، عباد الله مع نفسي بتقوى الله، والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته، وأحضكم على ما يدنيكم منه ويزلفكم لديه. فإن تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة لمعادٍ)، فهي ابتدائية أولا لأن واصل يتحدث وهو يثق في أن ما يقوله لا يحتاج إلى توكيد، بل إنه يقع في نفس المخاطبين فيحدث أثره دون الحاجة إلى ذلك، وفي الجمل استعانة بالأفعال المضارعة من قبيل: أوصيكم، أحضكم، يزلفكم... وهي أفعال يفترض في المخاطبين أن يستمروا في فعلها مدى حياتهم حتى يقوا أنفسهم فتن الدنيا وزيغها، ولعل حذف الخطيب لأداة النداء في قوله: عباد الله، واتصال نفسه بنفوس المخاطبين في قوله: عباد الله مع نفسي، من بلاغة الإيجاز الذي يدل على رغبة المخاطب في إزالة كل الأستار والحُجُب التي تفصل بينه وبين المخاطبين، حتى يتحقق تمام الاتصال النفسي رسما ومعنى.

تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وخِدعِها، وفواتن اتها، وشهوات آمالها	إنشاء طلبي يعتمد أسلوب النهي بصيغة لا الناهية والفعل المضارع.	يتَّحد النهي هنا الذي يفيد النصح والتحذير والتنبيه مع عناصر لغوية أخرى منها استعمال الترادف بين كلمات: الزينة والخدع والفواتن والشهوات، وقد جاءت هذه الكلمات نكرات جمعا لدلالة العموم، ففتن الدنيا كثيرة متغيرة متجددة مستمرة خادعة، وقد جاء النهي مقرونا بنون التوكيد لإفادة التحذير الشديد من الدنيا التي تتزين للناس فتغطي ضَعَتَهَا ودونيتها بفواتن كثيرة لا يكشفها إلا من أمن مكرها وكشف حقيقة سرابها الخادع، وقد جاء استعمال الجملة الفعلية مناسبا لأفعال الدنيا فهي لا تستقر ولا تثبت حتى توقع الناس في حبائلها، وهي أفعال متلاحقة لا تنتهي حتى ينقطع نفس الإنسان وتنتهي حياته.
نه متاع قليل، ومدة إلى حين، وكل شيء منها يزول. كم عاينتم من أعاجيبها، وكم نصبت لكم من حبائلها، هلكت من جانح جنح إليها، ومعتمد اعتمد عليها. اقتهم حلواً، ومزجت لهم سماً.	خبر	جاء الخبر مؤكدا بإن، وقد آثر الخطيب زيادة التوكيد باستعمال الجملة الاسمية التي تفيد الثبات والاستمرارية، لأن إغراءات الدنيا لا تنتهي، ثم يأتي استعمال النكرات: متاع/ مدة/ قليل/ إلى حين... لتزيد من معاني تحقير الخطيب للدنيا واستهانته بها، واستعمال كم الإخبارية التي تفيد أن المعتبر يكفيه ما يرى من وقائع كثيرة تثبت تقلب الدنيا وعدم استقرارها على حال، وأنها تقلب ظهر المِجَنِّ لكل راكن مستسلم لها ولفتنتها الزائلة. وقد جاءت الجملة خبرية إنكارية حافلة بأساليب التوكيد بدءا بإن والتكرار: جانح جنح / معتمد اعتمد، وانتهاء باختيار بنية الجملة الاسمية وانتقاء لفظ المعاينة دون السماع أو الإخبار لأن الذي رأى ليس كالذي سمع، وقد تعددت مظاهر التوكيد لأن المخاطَب نُزِّلَ منزلة المنكِر وإن لم ينكر بقلبه، فكلنا نعرف أن الدنيا زائلة وإنها فتنة لا تدوم، ولكن أفعالنا وركوننا لها يثبت عكس ما نعتقده، وهذا ما دعا الخطيب إلى زيادة التوكيد للتنبيه. وقد جاء حذف (كم) في الجملة الثالثة بليغا لأنه أفاد قوة الاتصال بين الخطيب والمتكلم، ولأن الحذف لم يقع إلا بعد ثبوت الاحتراز من عدم الفهم.
ن الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا المصانع، وأوثقوا بواب، وكاثفوا الحجاب، وأعدّوا الجياد، وملكوا لاد، واستخدموا التلاد؟	إنشاء طلبي استعمل فيه الخطيب أداة الاستفهام: أين	استفهام غير حقيقي أفاد التنبيه والدعوة إلى الاعتبار وأخذ الحيطة والحذر، وقد آثر الخطيب التمثيل بالملوك لأنهم أقوى من دانت لهم الدنيا والعباد، ولكنهم على قوتهم ماتوا، فَأُبْدِلَتْ القصور بالقبور والأُنْسُ بالخدم بوحشة الأجداث، والقوة بالضعف، والجمال بالقبح، وتُرِكُوا مع أعمالهم. فإذا كان هذا فعل الدنيا بالملوك فكيف تفعل بالمملوكين. وقد جاء العطف بالواو ليفيد شدة تمكن هؤلاء الملوك مما كانوا يفعلونه، كما أن استخدام صيغة الفعل الماضي: بنوا، شيدوا، كاثفوا...وتكرار حروف المد خاصة الألف والواو، دل على ثبوت الأفعال وتحققها، وفي هذا زيادة تحذير ودعوة للاتعاظ أكثر، فعلى تحقق هذه الأفعال كلها إلا أنها استحالت لسراب بعد موت أصحابها.
صتهم بمخلبها، وطحنتهم بكلكلها، وعضتهم بأنيابها، اضتهم من السعة ضيقاً، ومن العز ذلاً، ومن الحياة اء. فسكنوا اللحود، وأكلتهم الدود، وأصبحوا لا تعاين مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحس منهم من دا ولا تسمع لهم نبساً.	خبر ابتدائي	آثر واصل بن عطاء الخبر الابتدائي الخالي من أي توكيد، لأن الموت حقيقة بدهية لا ينكرها كافر ولا مؤمن، إنها الحقيقة الوحيدة اليقينية التي لا يختلف عليها اثنان، وقد جاء هذا الخبر الابتدائي مصورا لغدر الدنيا باستعمال استعارات جميلة الهدف منها شد انتباه المخاطَب، وتجسيد صورة الدنيا له، حتى كأنه يراها عيانا، ثم يأتي حرف العطف الفاء ليفيد الترتيب والتعقيب والسرعة، لأن فعل الموت لا يأتي إلا بغتة، وحين يأتي لا يمهل الإنسان حتى يرتب حياته ويقيم أودها، بل إنه يقنص الإنسان على حين غفلة منه، فإذا هو يستعيض بالقصور القبور. ثم يأتي استعمال أسلوب القصر من خلال أداتي النفي لا وأداة الاستثناء، وتكرار الكلمة وما يرتبط بها من معنى في استعمال كلمتي المساكن والمعالم لتأكيد تقلب الدنيا، فكل من يخامره شك فيما قاله الخطيب في البداية (الخبر الابتدائي)، عليه أن يعاين منازل الموتى وكيف أصبحت أثرا بعد عين، وفي هذا عظة بالغة لمن ينكر مقالة الخطيب ويريد الاتعاظ. نضيف لكل هذا طبيعة الحروف التي كررها الخطيب (اللام والكاف والضاد والطاء) وفي تكرارها إنباء وتأكيد لقسوة ما تفعله الدنيا بالراكنين لها.

زودوا عافاكم الله! فإن أفضل الزاد التقوى، واتقوا ه يا أولي الألباب لعلكم تفلحون.	إنشاء طلبي يحضر فيه الأمر بصيغة فعل الأمر، والنداء باستعمال أداة النداء (يا)، وإنشاء غير طلبي يفيد الترجي.	دل الأمر في فعلي: تزودوا واتقوا على الدعاء، يتوسط الأمرين خبر يفيد المعنى نفسه، وقد جاء هذا المعنى كالماء البارد على الظمأ، فبعد أن أطنب الخطيب في التحذير من الدنيا وفتنتها، وذكر تقلبها، جاء الدعاء ليريح قلوب المخاطبين، وهذا هو شأن الخطباء المفوهين، يجعلون حديثهم بين ترهيب وترغيب، وخوف ورجاء. وقد جاء العطف بالفاء لإفادة التعقيب، فإذا كانت الدنيا خادعة مغررة بأهلها، فإن الوجاء منها هو التقوى. وقد توسل الخطيب بأداة الترجي (لعل) لإفادة إمكانية تحقق المُتَرَجَّى، أما تكرار التقوى وتوكيده بأداة التوكيد (إن) فيفيد أنه بؤرة هذه الخطبة، فالحذر من الدنيا يوجب التقوى لأنه المانع من الركون لفتنتها. وقد استعمل الخطيب أداة النداء (يا) لنداء البعيد لنكتتين بلاغيتين هما: أن الخطبة كما ذكرت كتب النقد قيلت حين تولى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ولاية العراق، وقد قدم الخطباء لتهنئة الوالي بالمنصب الجديد، وكان واصل من الذين خطبوا في هذا المقام، واستخدام أداة نداء للبعيد فيه تقدير واحترام للمخاطَب ولمقامه، علاوة على أن تنزيل المخاطب القريب منزلة البعيد دال على غفلته، وهو ما يتناسب مع فحوى الخطبة من الحديث عن الراكنين للدنيا اللاهيين عن الآخرة، وهل من فتنة تلهي الناس وتنسيهم ذكر الموت والآخرة أكثر من الحُكْمِ والسلطة.
علني الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه، ويعمل لحظه سعادته، وممن يستمع القول فيتبع أحسنه (أولئك دين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب). إن أحسن صص المؤمنين، وأبلغ مواعظ المتقين كتاب الله، كيةِ آياته، الواضحة بيناته.	خبر	خبر يفيد الدعاء، وفي تنويع الخطيب لأسلوبه بين الخبر والإنشاء احتراز من وقوع المخاطَب في الملل الذي يقوده لعدم الإنصات والاعتبار والفهم. وقد جاء التعبير بالفعل المضارع: ينتفع/ يستمع/ يعمل لإفادة الاستمرارية والتجدد، فهذه الأفعال ينبغي أن تكون ملازمة للمؤمن لا ينقطع عنها إلا بانقطاع عمره. ولنلاحظ طبيعة الألفاظ التي تخيرها الخطيب هنا، فبعد أن بالغ في تحذير المخاطَبين من الدنيا باستعمال ألفاظ مخيفة جرسا ومعنى مثل: الفناء، اللحود، الكلكل، القنص، والمخلب وغيرها، يعود هنا ليصطفي ألفاظا تركن لها النفس وتطمئن لها، فهي سهلة طيبة جرسا ومعنى ومنها: الانتفاع، السعادة، الهداية...وهي ألفاظ تحبب التقوى للنفوس. إن تناقض الصورتين وتضادهما خير توكيد من الخطيب على ما يريد إقناع المخاطَبين به، وهو عدم الركون للدنيا والاستمساك بحبل التقوى الذي يَقْوَى في النفوس ويَتَأَكَّدُ بإدامة النظر في كتاب الله عز وجل الذي ضم بين جنبيه كل الحكمة والموعظة ولهذا جاء التوكيد لإفادة مكانة القرآن الكريم وعظمه وقدره.
ذا تلي عليكم فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تهتدون.	إنشاء طلبي يستند على صيغة فعل الأمر: استمعوا، أنصتوا، والإنشاء غير الطلبي من خلال أداة الترجي: لعل.	أمر يفيد الحث على حسن الاستماع والإنصات، لأنهما مظنة الفهم، فإذا حصل الفهم تحقق الإتِّبَاعُ. وكلا اللفظين: الاستماع والإنصات فيهما زيادة توكيد لمعاني الفهم والاستيعاب والتركيز والاهتمام الذي يجب أن يطال كلام الله عز وجل حين يقال. وقد جاء البناء للمجهول في فعل (تلي) ليدل على العموم، فالإنصات والاستماع لا يقترن بكلام الخطيب في هذا المجلس فقط، بل يرتبط بكل المجالس التي يحضر فيها كلام الله عز وجل.
وذ بالله القوي من الشيطان الغوي، إن الله هو سميع العليم. بسم الله الفتاح المنان.	خبر	تتالى الجمل سواء كانت خبرية أم إنشائية لتدل على الدعاء، وقد قابل الخطيب بين قوة الله عز وجل، وضعف الشيطان وغوايته ليثبت للمخاطبين أن غواية الدنيا الخادعة ليست إلا من كيد الشيطان الضعيف، الذي يذهب كيده وينمحي بالاستعانة بالله عز وجل واللجوء إليه فهو الركن المتين الذي لا يغيب أبدا. وقد جاء التوكيد بعد ذلك في جملة "إن الله هو السميع العليم" بليغا في اختيار الخطيب لهذين الاسمين خاصة من أسماء الله الحسنى، فقد تناسبا مع مضمون الخطبة من جهتين: أولهما أن اسم السميع جاء مقرونا في القرآن الكريم بهذه

		الأسماء الثلاثة: السميع، البصير، القريب. وقد اختار الخطيب السميع العليم لخلوه من حرف الراء مع ما في هذا من ذكاء وفطنة كبيرين من قبل الخطيب، وثانيهما أن هذين الاسمين مناسبين تماما للمعنيين الذين يؤسسان للخطبة وهما: الاغترار بالدنيا والتقوى، فإن الله عز وجل سميع باستغفار الذين اعتبروا وقرروا التخلص من أدران الدنيا وشوائبها التي علقت بأفئدتهم، عليم بصدق توبتهم ورغبتهم في الأوبة إلى ركن الله الشديد، كما أن اقتران الاسمين دلالة على الإحاطة بالخَلْقِ، وفي هذا تنبيه للمخاطبين حتى يراقبوا ما يقولون من أقوال وما يصنعون من أفعال، ثم إن سمع الله محيط بنا حتى وإن لم نتكلم، فهو مدرك لمناجاتنا وما يمور في صدورنا وما نعانيه من بأس في مجاهدة الدنيا وفتنها، ومعرفة هذا يعين المخاطَب على مداومة الجهاد وعدم اليأس ومجانبة الضعف. ثم يأتي اسما الفتاح المنان ليزيدا من طمأنينة المخاطَبين، ويبث فيهم روح الإيمان، فالفتاح هو الذي يفتح أبواب الرحمة للجميع المقصرين منهم وغير المقصرين، وهو ما يعني دوام التوكل عليه عز وجل، أما المنان فهو تذكير بنعم الله عز وجل الذي يمن ويعطي فيجزل العطاء، ومن عطاءاته المغفرة والتثبيت والإعانة.
ى هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن كفواً أحد.	اقتباس من القرآن الكريم وفي السورة أمر حقيقي.	اتفق في استشهاد الخطيب بهذه السورة أمور كثيرة تدل على براعته وحذقه وهي: – خلو السورة من حرف الراء الذي كان الخطيب يتحاشاه لِلَثْغٍ الذي فيه. – عظم شأن هذه السورة فهي تعدل ثلث القرآن الكريم. – صفات الجلال والعظمة والكمال التي أثبتتها السورة، وهي صفات تتناسق مع المعاني التي ذكرها الخطيب سابقا من ضرورة الفرار من الدنيا والاعتصام بالتقوى فهو الضامن للنجاة من خلال استحضار افتقار النفس البشرية لله عز وجل.
عنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، والآيات والوحي بين. وأعاذنا الله وإياكم من العذاب الأليم وأدخلنا إياكم جنات النعيم. أقول ما فيه أعظكم، وأستعتب ه لي ولكم	خبر	جمل خبرية تفيد الدعاء، ولعل في ختم الخطيب خطبته بالدعاء بالانتفاع بكتاب الله عز وجل والوقوف على ما فيه من وعد ووعيد لتحقيق الغاية التي لأجلها خُلِقْنَا، ولعل إشراك الخطيب نفسه مع المخاطبين في قوله: أعاذنا وإياكم/ أدخلنا وإياكم/ أستعتب الله لي ولكم، فيه لمسة نفسية بديعة، فالخطيب لا يستثني نفسه من الوعظ، ولا يزكيها، بل إنه قدم نفسه ليدل بهذا التقديم على أنه أول من يجب أن يتعظ.

– براعة الاستهلال والختم:

مما ينبغي للخطيب أن يتأنق فيه موضعا الابتداء والانتهاء في خطبته، لأنهما أول وآخر ما يقرع سمع المخاطب، فالابتداء كما يرى الخطيب القزويني ينبغي أن يكون أعذب لفظا، وأحسن سبكا، وأصح معنى، يقول: "فإن كان كما ذكرنا أقبل السامع على الكلام، فوعى جميعه، وإن كان بخلاف ذلك أعرض عنه ورفضه وإن كان في غاية الحسن"[7]. أما الانتهاء فيرى القزويني أنه يجب أن يؤذن بانتهاء الكلام[8].

ولقد اعتنى واصل بن عطاء بمقدمة خطبته، فقد بدأها بالثناء على الله عز وجل بصفات تُشْعِرُ المخاطَب بجلال الله عز وجل وقدرته وقوته وعظمته، ثم ثَنَّى بالصلاة على الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو إذ يفعل

---

[7] - الخطيب القزويني - الإيضاح في علوم البلاغة - تحقيق: محمد السعدي فرهود وآخرون - دار الكتاب المصري - سنة النشر: 1420هـ/ 1999م - الطبعة السادسة - ص:605.

[8] - المرجع نفسه - ص:612.

هذا يُجَنِّبُ خطبته البتر، إذ إن العرب تسمي كل خطبة لا تبدأ بحمد الله والصلاة على الحبيب صلى الله عليه وسلم بتراء أو شوهاء لأنها مقطوعة من كل خير. كما أن الخطيب أيضا اعتنى بنهاية خطبته حيث ختم بالدعاء له وللمخاطَبين، وفي هذا ملمحان جميلان: أولهما أن الدعاء إيذان بانتهاء الخطبة، كما أن معنى الدعاء جاء متوافقا مع معاني الخطبة السابقة التي حذر فيها الخطيب من فتنة الدنيا وزيغها، فالدعاء إقرار وتذكير للمخاطَب بضعف قُوَّتِهِ إن لم يستعن بالله عز وجل، وثانيهما أن في الدعاء إظهارا لنوع من التضامن والمحبة الموجهة من الخطيب للمخاطَبين، وفي هذا استمالة لهم وترقيق لنفوسهم وحث لهم على فهم الخطبة والعمل بما فيها من خير.

أضيف لما ذكرته عناية الخطيب بأسلوب استهلال الخطبة وخاتمتها من حيث استعمال السجع والاقتباس والجناس والطباق والاستعارة والمجاز وغير ذلك كثير مما بينت بعضه في الجداول السابقة، إضافة إلى نزوع الخطيب نحو استعمال الكلمات الخالية من الراء والاستعاضة بما يؤدي معناها، وفي هذا رعاية للمخاطَبين، فاللثغ الذي كان في واصل كان يمكن أن يكون عائقا يحول دون كسب ثقة المخاطَبين واسترعاء انتباههم، لأن الذي يتصدر مجالس الخطبة ينبغي أن يمثل صورة الخطيب الأنموذج المتملك لناصية اللغة الذي يطوعها فتنقاد له ولمعانيه، القادر على أن يعبر عن المعاني الجليلة بالألفاظ الرائقة التي تُراعى خصوصية الخطبة، وأنها مقام لاجتماع ناس من مختلف المقامات ففيهم العالم والجاهل، والمتفقه والعادي، والأمير والمأمور، والغني والفقير، وعلى الخطيب أن يراعي اجتماع هذه المقامات كلها في مكان واحد. وكلما نَدَّ عن الخطيب فعل أو قول يخدش صورته هذه أمام المخاطَبين، يكون قد دق مسمارا في نعش خطبته، ولهذا نجد أن واصلا قد انساقت له اللغة فكأنه يختار منها ما يشاء ويدع ما يشاء، ولهذا آثر استعمال الكلمات الخالية من الراء عوض مرادفاتها التي فيها راء وهو ما سأشير له لاحقا.

- مواقع الخطاب وخططه في الخطبة:

الحديث عن مواقع الخطاب وخططه في الخطبة يقودنا إلى البحث عن سياق الحال الذي قيلت فيه الخطبة، فقد قيلت أمام جمع من الناس والخطباء الذين اجتمعوا لتهنئة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز حين عاد واليا على العراق، فخطب الخطباء وباركوا للوالي الولاية، ثم جاء دور واصل الذي كان يعاني من لثغة قبيحة فعالجها بطول الدربة والمران حتى استقام لسانه وتخلص منها باجتناب كل الكلمات التي فيها راء، يقول المبرد: "وكان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللُّثغة في الراء، فكان يُخَلِّصُ كلامه من الراء، ولا يفطن لذلك،

لاقتداره وسهولة ألفاظه"[9]. يُصَدِّقُ هذا الكلامَ ما أورده الإمام العكري الذي يقول: " كان ألثغ يبدل الراء غينا، وكان يُخَلِّصُ كلامه بحيث لا تُسمع منه الراء، حتى يظن خَوَاصُّ جُلَسَائِهِ أنه غير ألثغ"[10]. إننا أمام مقام اجتمع فيه عِلْيَةُ القوم بدءا بالوالي وحاشيته من الوزراء والكتاب والخطباء، وانتهاء بعامة الناس المهنئين، وفي هذا المقام اختار واصل بن عطاء الخطة التضامنية، لأنها كانت أنسب الخطط لهذا المقام، فالخطة التلميحية لم تكن لتكون مناسبة في هذا المقام الذي يتطلب المباشرة والإخبارية والتقريرية، فالحث على تقوى الله عز وجل والتحذير من الدنيا وزينتها وزيغها كانت رسائل مباشرة كان واصل يروم إيصالها للمخاطَبين، أما الخطة التوجيهية فلم تكن لتناسب قدر المخاطَبين ومنهم الوالي خاصة، فالتوجيه المباشر فيه نوع من التعالي على مقام الوالي، وهو ما لم يكن لِيَغْفَلَ عنه الخطيبُ، فقد حفظ هذا المقام فنصح وحذَّر ولكنه في كل نصح وتحذير كان يضع نفسه مع المخاطَبين ويسوي نفسه بهم، يقول: "أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله" ويقول أيضا: "جعلني الله وإياكم"، "نفعنا الله وإياكم"، "أعاذنا الله وإياكم"،"أدخلنا وإياكم"، "أستعتب الله لي ولكم" كما أن كل أمر ونهي واستفهام في الخطبة لم يمثل قوته الإنجازية الحرفية كما بينت سابقا، بل كانت لهذه الأساليب قوة إنجازية مستلزمة تدل غالبا على معاني: التحذير من الدنيا وتقلبها، والنصح والحث على التقوى، وأمام كل معنى من هذه المعاني بدا الخطيب محبا مشفقا على مخاطَبيه.

إلى جانب الخطة التضامنية عمد الخطيب إلى تأسيس خطبته على الخطة التلميحية حيث أكثر من استعمال الأفعال المنسوبة للمجهول، خاصة حين ذَكَّر بفعل الدنيا مع الملوك (كم أهلكت من جانح جنح لها، معتمد اعتمد عليها...)، وفي هذا ملمحان تداوليان هما: أن توجيه الخطاب للمجهول في معرض النصح والتذكير أكثر تأثيرا في النفس البشرية التي تنفر من النصح المباشر خاصة إذا كان أمام جمع من الناس، وكان المنصوح ذا مقام أمام قومه مثل الوالي هنا، وهو عمل أيضا بالتوجيه الرباني في النصح الذي سَنَّه الرسول صلى الله عليه وسلم حين كان يعمد للنصح فكان يقول: ما بال أقوام...، ولم يكن يخصص حديثه ولا يوجهه لشخص معين. كما أن الخطة التلميحية كانت أكثر وقعا وتأثيرا من الخطة التوجيهية، فالتلميح أحيانا أبلغ من التصريح، وفي نسبة الأفعال التي

---

[9] - محمد بن يزيد المبرد - الكامل في اللغة والأدب - تحقيق: عبد الحميد هنداوي - من إصدارات وزراة الشؤون الإسلامية السعودية - المجلد الثالث - ص:34.

[10] - الإمام شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط - المجلد الثاني - دار ابن كثير لبنان - الطبعة الأولى سنة النشر: 1988م/ 1408هـ - ص:136.

ألحقتها الدنيا بالملوك عامة والجانحين لها والمعتمدين عليها زيادة في توكيد غدر الدنيا وفتنتها التي لا تستثني أحدا حتى الذين يحسبون أن الدنيا دانت لهم وأصبحت ملك يمينهم.

كما أن الخطيب أكثر من استعمال الاستعارات والكنايات والمجازات وهو ما بينته سابقا، وهي كلها أدوات ووسائل لغوية توخى منها الخطيب نقل الدنيا من صورتها المجردة إلى صورة محسوسة باستعمال الاستعارة خاصة، التي استطاع الخطيب من خلالها الكشف عن وجه الدنيا البشع الذي تخفيه تحت ستار فتنتها، وقد تعاضدت هاتان الخطتان معا من أجل إقناع المخاطَبين بصدق مقالة الخطيب.

نضيف لهاتين الخطتين خطة ثالثة هي الخطة الإقناعية، وهي التي تؤطر الخطبة كلها، فالخطيب منذ البداية يصدر عن موقع إقناعي، فهو يسعى لبلوغ مرامه من الخطبة من خلال السلطة المعنوية واللغوية التي يمتلكهما، فهو أولا من الخطباء الذين اصطفاهم الوالي للخطبة بين يديه، وفي هذا إقرار لسلطة معنوية للخطيب على المخاطَبين، كما أن امتلاك واصل بن عطاء لناصية اللغة وتَخَيُّرِهِ للألفاظ، واستعماله للصور البديعة، واغترافه من معين البلاغة الذي لا ينضب كل هذا منح الخطيب سلطة لغوية مكنته من إقناع المخاطَب ودفعه إلى العمل بمقتضى الخطبة.

إن الخطيب عمد إلى الاستناد على حجج منطقية واقعية بدهية لا يمكن للخطيب أن يشكك في صدقها، فقد دعا المخاطَبين إلى التأمل في فعل الدنيا بالراكنين إليها، وخص حديثه بالملوك، وفي هذا إشارة بليغة من واصل للوالي، فإذا كان الملوك الذين سبقوه قد تركوا كل ما جمعوه من متاع الدنيا وراء ظهورهم، وكان مقرهم اللحود، فإن هذا الفعل وهذه النتيجة لن تخطئ أحدا حتى الأمير، وفي هذا عبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد. إن هذه الحجة الوحيدة هي التي أسس عليها الخطيب حجاجه، وقد قام بتأكيدها وشرحها باعتماد أساليب التوكيد والتكرار والطباق والجناس والاقتباس والسجع والاستعارة والمجاز والكناية والخبر والإنشاء، مع توزيع لشبكة الضمائر التي أمسكت النص وجعلته لحمة واحدة لا ينفصل فيها الاستهلال عن الوسط عن الخاتمة.

إن الخطيب ينتقل من الترهيب إلى الترغيب ومن التحذير إلى النصح ومن الخوف إلى الرجاء، وهذه التلوينات النفسية للخطاب الهدف منها كسب اهتمام المخاطبين وعدم سهوهم، فالانتقال من إحساس إلى آخر يُمَكِّنُ المخاطَب من محاربة الملل والرتابة التي قد تنتج عن طول الخطبة أو التركيز على إحساس نفسي دون آخر، كما أن الاستعانة بالكلمة القرآنية يضفي على الخطبة مصداقية ورونقا وجمالا، يقول الجاحظ: "وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار،

والرقة، وسلس الموقع"[11]. كما أن الخطيب برغم اعتماده على الاستعارات والمجازات والكنايات، إلا أن خطبته تميزت بالوضوح والشفافية والمباشرة، واعتمادها على المسلمات العقلية المقبولة التي تُظْهِر قوة الخطيب وصدق خطابه. وإن مما يزيد من حجية خطاب واصل بن عطاء أنه كان معروفا بالزهد عند الناس، فمظهره يصدق مخبره، ومقاله يصدق فعله، وهذا مما يؤكد سلطته الإقناعية أمام المخاطَبين [12].

لقد اعتمد واصل على تلوين خطابه بالقرآن الكريم، إذ تكاد لا تخلو فقرة من فقرات خطبته من الاقتباس، وقد تخير الخطيب من الآي ما يؤكد حجية ما يقرره، فهو أولا يمهد للمخاطَب بتبيان عظمة الله عز وجل وقدرته ورحمته، وكأن هذا يقود منطقيا لما سيأتي بعد هذا وهو ركون الناس للدنيا الزائفة، والخروج عن المحجة البيضاء التي أقرها الله عز وجل العليم الخبير القوي الرحيم، ثم يأتي التذكير بأقوام خلت، ملكت كل أصناف القُوى، ويتمثل الخطيب هنا باقتباس الآيات الدالة على قوم عاد، الذين ضُرِبَ بهم المثل في قوة الجسم والبناء والتشييد، والذين تشهد البشرية لهم بالفرادة والتميز، هؤلاء الذين ملأوا الدنيا ودانت لهم الأرض بخيراتها، فلما كفروا ونسوا المنعم محقهم الله عز وجل وجعلهم أثرا بعد عين. لتأتي خاتمة الخطبة وتذكر مجددا بعظمة الله عز وجل ورحمته، وليأتي الاقتباس مناسبا لمشاعر المخاطبين في آخر الخطبة، فكأن واصل قد لمس في وجوههم علامات

---

[11] - عمرو بن بحر الجاحظ - البيان والتبيين - الجزء الأول - ص:118.

[12] - اختلف الناس في مذهب واصل بن عطاء، ووصل الأمر ببعضهم إلى اتهامه بالخروج عن الجماعة، جاء في "لسان الميزان" ما يأتي عنه: "واصل بن عطاء البصري الغزَّال المتكلم البليغ المتشدق الذي كان يلثغ بالراء، فلبلاغته هجر الراء وتجنبها في خطابه، سمع من الحسن البصري وغيره. قال أبو الفتح الأزدي: رجل سَوء كافر.

قلت: كان من أجلاد المعتزلة، ولد سنة ثمانين بالمدينة، ومما قيل فيه:

ويجعل البُرَّ قمحا في تصرفه وخالف الراء حتى احتال للشعر

ولم يطق مطرا والقول يعجله فعاذ بالغيث إشفاقا من المطر

وله من التصانيف: كتاب 'أصناف المرجئة' وكتاب ' التوبة' وكتاب ' معاني القرآن'. وكان يتوقف في عدالة أهل الجَمَلِ ويقول: إحدى الطائفتين فَسَقَتْ لا بعينها، فلو شهد عندي عَلِيٌّ وعائشة وطلحةُ على باقة بَقْلٍ لم أحكم بشهادتهم. مات سنة إحدى وثلاثين ومائة، انتهى.

قال المسعودي: هو قديم المعتزلة وشيخها، وأول من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين، وكنيته أبو حذيفة.

وقال الجاحظ: كان بشار الشاعر صديق أبي حذيفة واصل، وكان قد مدح خطبته التي نزع منها الراء، ثم رجع عنه لما دان بالرجعة، وكفَّر جميع الأمة، لأنهم لم يتابعوا عليا، فسئل عن علي فقال: وما شر الثلاثة أمَّ عمروٍ.

قلت: وما أظن هذا إلا وهما في حق واصل".

[الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - لسان الميزان - اعتنى به الشيخ: عبد الفتاح أبو غدة - أخرجه وطبعه: سلمان عبد الفتاح أبو غدة - الجزء الثامن - مكتبة المطبوعات الإسلامية لبنان - الطبعة الأولى - سنة النشر: 1423هـ/ 2002م - ص:369 - 370.]

الخوف والفَرَق، فأشفق عليهم وذكرهم برحمة الله، وبأن التقوى هو حبل النجاة لمن أراد أن ينجو من زيغ الدنيا وفتنتها. كان هذا البناء المنهجي المحكم للخطبة سببا رئيسا من أسباب تحقق الإقناع فيها.

وقد اعتمد الخطيب أيضا في خطته الإقناعية على الملاءمة بين خطابه الحجاجي والمناسبة التي قيل فيها، فرغم ما قد يبدو للوهلة الأولى من نُبُوٍّ بين مضامين الخطبة وسياق حالها المتعلق بتولي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز لولاية العراق، وما يقتضيه هذا من تهنئة بالولاية، إلا أن الخطيب آثر التذكير بمصير الملوك الذين ركنوا إلى الدنيا فأصابتهم في مقتل، وفضل الحث على الاحتماء بالتقوى لأنه الوجاء بين المخاطَبين والدنيا، وقد كان لهذا الوعظ ولهذه الرقائق أسبابها، فالتذكير بتحول الدنيا وزوالها حَثٌّ للوالي وحاشيته على التزود للآخرة بإقامة العدل فيما كتبه الله من تكليف الوالي بالرئاسة، ولو فرضنا عرضا أن واصل بن عطاء نَهَجَ نَهْجَ الخطباء الآخرين في التهنئة بالولاية والثناء على الوالي وتعظيم شأنه لكان هذا استدراجا للوالي، وترسيخا لمقام الدنيا والسلطة في قلبه، ومدعاة للتسلط على عباد الله وظلمهم، لكل هذا أعتقد أن اختيار واصل لخطابه الحجاجي كان مناسبا للسياق العام، كما أن حججه كانت خالية من الإيهام والمغالطة، بل إنها استندت على معرفة مشتركة بين الخطيب والمخاطَبين، فمن منا لم تفتنه الدنيا مدة من الزمن، ومن منا لم يركن لزينتها، ومن منا سلمت له الدنيا فخلت من الأكدار وصفت من الأدران، ولكنها تدير ظهر المجن فيوم لنا ويوم علينا.

وقد دل تنوع اقتباسات واصل بن عطاء، واحترازه من الراء، وسعة معرفته لكلمات العربية، وإحكامه لصنعة الخطابة على امتلاكه لثقافة واسعة، ورصيد معرفي غني، فهو يتحدث حديثا جزلا فصيحا سلسا سهلا، وفي هذا تأكيد لسلطته الإقناعية.

إن سلطة الخطبة الحجاجية تزداد حين يجعل الخطيب الدنيا بؤرة خطبته، فيسعى إلى تصويرها وتشنيعها وتقبيحها، فكأنه يجرد من نفسه نفسا ثانية ترفض هذه الصورة التقبيحية للدنيا خاصة إذا كان الأمر متعلقا بمن دانت له بمتاعها وأهلها (الوالي وحاشيته)، وحين يجرد من نفسه هذه النفس الأخرى فهو يسعى إلى تخيل رد فعلها، ومحاججتها، فيستعين ببلاغة الصورة وحجيتها، فهو لا يكاد ينتهي من صورة حتى تُسْلِمَهُ لصورة أخرى أكثر جمالا وتأثيرا من التي سبقتها، فيجد المخاطَب نفسه في مواجهة هذه الصور الرائقة التي تحيط به من كل جانب، فلا يملك إلا أن يُسَلِّمَ بها وبِصِدْقِهَا، يقول الجرجاني متحدثا عن الاستعارة - وقد كانت الأكثر حضورا في خطبة واصل -: "ومن الفضيلة الجامعة فيها، أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قَدْرَه نبلا، وتوجب

له بعد الفضل فضلا، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخِلابة مموقة.

ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها، أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تَخْرُجَ من الصَّدفة الواحدة عدةٌ من الدُّرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر. وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة، ومعها يستحق وصف البراعة، وجدتها تفتقر إلى أن تعيرها حُلاها، وتقصُر عن أن تنازعها مداها وصادفتها نجوما هي بدرها، وروضا هي زهرها، وعرائس ما لم تعرها حَلْيَها فهي عواطل، وكواعب ما لم تحسنها فليس لها في الحسن حظ كامل.

فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخُرْس مُبينة، والمعاني الخفية بادية جلية، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعزُّ منها، ولا رونق لها ما لم تَزِنْهَا، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تَكُنْها. إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي خبايا العقل، كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطَّفتِ الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها الظنون"[13].

إن الجرجاني يحدد عدة مزايا لاستعمال الاستعارة، فهي تزيد المعنى قدرا وبهاء، كما أنها من موانع الرتابة، فلمستعملها أن يكرر المعنى نفسه مرارا، ولكن إلباس هذه المعاني المكرورة لبوس الاستعارة يقيها من السقوط في براثن التكرار الممج، وهي أيضا من وسائل الإيجاز، إذ تملك القدرة على جمع الكثير من المعاني في اليسير من الألفاظ، نضيف لكل هذا قدرتها على تجسيد المعاني المجردة وتقريبها من المخاطَب، وتجريد المعاني المحسوسة المجَسمة.

إنني أجزم أن واصل استطاع أن يستفيد من كل هذه العناصر الجمالية والحجاجية للاستعارة خاصة وللكناية والمجاز عامة، وهو ما فصلت الحديث فيه فيما سلف ذكره.

تزداد حجية خطبة واصل وخطته الإقناعية حين نعرف أن خطبته هذه لا تتوقف على الظاهر من الملفوظ، بل إنها تتجاوزه إلى خطاب آخر غير ملفوظ، نفهمه من سياق الملفوظ الأول، فإذا كانت الخطبة الأولى تذكر بعواقب التعلق بالدنيا وتحذر من آفاتها، وتحث على التمسك بحبل التقوى للنجاة، فإن الخطاب الثاني المقصود من الملفوظ الأول هو توجيه النصح للوالي بحسن رعاية رعيته، فإذا كان المآل هو الموت ولابد، وإذا كانت الدنيا

---

[13] - عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة في علم البيان - تحقيق: عبد الحميد هنداوي - دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان - الطبعة الأولى - سنة النشر: 1422هـ/ 2001م - ص:39/ 40.

سَتُدْبِرُ لا محالة، فمن الحرص والفطنة أن يتجهز لهذا الموعد الذي لا يُخْلَف بإقامة العدل ونشره، وحسن القيام بمسؤولية الحكم والولاية، وهي رسالة لا شك أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز قد تلقفها وفهمها ووعاها، لأن الخطيب لم يكن ليضمر هذا الخطاب لو أنه شك للحظة في قدرة المخاطَب على الفهم.

إن هذه الخطبة بملفوظها الصريح ورسالتها الضمنية، يمكن إدراجها ضمن سلم حجاجي منطقي تتعدد أدواته اللغوية واستلزاماته المنطقية، ولكنه عموما يدل على كفاءة تداولية موجودة عند الخطيب، مكنته من تحقيق تراتبية منطقية في خطبته، تنتقل من الأدنى للأعلى، ومن الصريح للضمني، وهو ما سأبينه في الجدول الآتي الذي يبين أن لكل عبارة في الخطبة ما يقابلها من تراتبية حجاجية منطقية:

التراتبية الحجاجية المنطقية	موقعها من الخطبة
– التركيز في الاستهلال على صفات الله عز وجل المفيدة للعظمة والهيمنة فيه تذكير بأن أية سلطة دنيوية (سلطة الوالي وغيره) ليست شيئا أمام مالك الملك. أما صفات الرحمة ففيها رسالة ضمنية بأن الأوان لا يفوت أبدا لإصلاح النفس، وهي دعوة للسلطان ورعيته على السواء بإصلاح أنفسهم، فصلاح الرعية من صلاح السلطان، وصلاح السلطان من صلاح الرعية.	– الثناء على الله عز وجل بصفات الجلال والكمال: والتركيز على صفات: الأول، الباقي، العلي، الوالي، المحيط، القادر، الخالق، المريد، الحكيم، العظيم، الواسع، السميع، العليم، الملك، المتعال، الصمد، المبدئ، العزيز، الرحيم، التواب.
– إقامة للحجة على المرسَل إليه لأن الرسالة أُدِّيت، وأداؤها حجة على المتلقي.	– الشهادة بأداء الرسول صلى الله عليه وسلم للرسالة.
– الغاية الصريحة من الخطبة تدرك من خلال:	– الحث على التقوى والتزود للآخرة.
– الوسيلة الأولى	– البعد عن الدنيا وفتنتها.
– سبب هذه الدعوة (البعد عن الدنيا): هوان الدنيا وضَعتُها، والحجة على هذا:	– أفعال الدنيا بالملوك والمعتمدين عليها والراكنين إليها عامة/ تغير الدنيا وانتقالها من النفع إلى الضر، ومن الإقبال إلى الإدبار/ الموت الذي يقطع غنى الغني وسلطته وعلوه وكِبْرَه.
	– الحث على التقوى.
	– الدعاء للمخاطبين.
– تكرار الغاية من الخطبة:	
– تليين قلوب المخاطَبين وإمالتهم.	

الهدف الضمني من كل هذه التراتبية المنطقية في ذكر الغاية ثم الأسباب الموصلة لتحقيقها، والمقارعة بالحجة في تبيان صحة الأسباب هو توجيه الوالي لحسن القيام بأمر الرعية والعدل وعدم الاغترار بالسلطة ولا ببريقها الزائل الذي سينمحي بانتهاء الأجل.

تحققت هذه التراتبية الحجاجية من خلال ربط النص بعضه ببعض، فهو كاللُّحْمَةِ الواحدة التي تترابط فيه الكلمات والعبارات والفقرات، وقد تحقق هذا الترابط بوسائل لغوية كثيرة منها الروابط اللغوية المتمثلة في: حرفي النفي (لا، لم)، والأسماء الموصولة (الذي، ما، الذين)، وحروف العطف (الفاء والواو، كم)، وحروف الجر (على، اللام، عن، الباء، إلى، من، في، حتى)، وحرف الإضراب (بل)، والضمائر المتصلة والمنفصلة (الهاء، هو، هم)، وحروف التوكيد (أن، إن، نون التوكيد المشددة)، وحرف الاستثناء (إلا)، وحرف الاستفهام (أين)، وأداة النداء (يا)، وأداة الترجي (لعل)، واسم الإشارة (أولئك) وغيرها.

يحضر الموقع الإقناعي في الخطبة أيضا من خلال إعادة تصنيف الخطيب لما يعده المخاطَب أوليا في قائمة اختياراته، فالدنيا عند الوالي وحاشيته في حالة إقبال، وقد يؤثر هذا سلبا على التصنيف الحقيقي لأولويات الوالي، فيضع الدنيا في قمة أهدافه وغاياته، لأن إقبال الدنيا قد يمثل حجابا ساترا خادعا للمخاطَب، وقد سعى الخطيب إلى إعادة تصنيف أولويات المخاطَب من خلال رَجِّه رَجّةً عنيفة تكشف عن زيف ما تعلق المخاطَب به، فَذِكْرُ الموتِ وزوالُ مُلْكِ الملوكِ كصفعةٍ وُجِّهَتْ لخد الوالي فأيقظته مما يحسبه ماء وهو ليس إلا سرابا.

إن خرق أفق انتظار المخاطَب هنا كان أنجع وسيلة حجاجية مكنت الخطيب من إقناع المخاطَب بصدق دعواه، وقد كان من وراء الإقناع دعوة للفعل والتجهز للقاء الله بالتحصن بالتقوى في كل شيء.

إن ما كان أوليا عند المخاطَب في بداية الخطبة، أضحى في ذيل القائمة بعد انتهاء الخطيب من خطبته، فالدنيا التي دانت للوالي وخضعت له، ليست إلا فتنة سَتُسْلَب من المُخَاطَب بمجرد موته، وامتحانا لن يتفوق فيه إلا المتقون أصحاب البصائر النافذة.

إن واصل بن عطاء يبني خطبته على هدف واحد صريح هو: اتقاء فتنة الدنيا بالتمسك بحبل التقوى، وهدف ضمني هو: حث الوالي على حسن رعاية الرعية، وهذا الهدف سواء كان صريحا أم ضمنيا هو القضية الوحيدة التي تستند عليها الخطبة في بنائها الحجاجي التراتبي، فالخطيب يجعل مدار حديثه بدءا من الاستهلال ثم منتصف الخطبة وانتهاء بالخاتمة هو هذه الغاية الوحيدة، ولكنه يتفنن في الطرق المؤدية إليها، فمرة يستعين بالأسلوب الخبري المباشر التقريري الواضح، ومرة أخرى يضفي على خطبته بهاء وألقا من خلال المجاز والكناية والاستعارة، وهو في كل هذا إنما يراعي طبقات المخاطَبين أمامه، فمنهم العامي البسيط، ومنهم من يُمَاثِل الخطيب في كفاءته اللغوية.

إن استعمال الخطيب هنا لدرجات متفاوتة من الخطاب دليل على كفاءته اللغوية التي تعني الاهتمام بتفاوت المخاطبين في كفاءتهم التداولية، وهذا التفاوت نجد له مظهرا آخر يتمثل في تنويع الخطاب الخبري بين الابتدائي والطلبي والإنكاري كما بينت ذلك سالفا، ففي الحديث عن اتصاف الله عز وجل بصفات الجلال يستعمل الخطيب عامة الخبر الابتدائي، أولا لأن جمهور المخاطَبين يشتركون مع الخطيب في انتمائهم للثقافة الإسلامية، لذلك فإن اتصاف الله عز وجل بالعظمة خبر صادق لا يحتاج إلى توكيد لأنه من المعلوم بالضرورة عند المسلمين، وثانيا على فرض إنكار المخاطَب لمقالة الخطيب إلا أن هذا الأخير يُنْزِلُ المخاطَب المنكر منزلة غير المنكر لأن الدلائل على عظمة الخالق أوضح من أن تحتاج إلى توكيد. أما حين يتعلق الأمر ببيان الخطيب لحقيقة الدنيا وتقلبها، فإنه غالبا ما يستعمل الخبر الطلبي أو الإنكاري رغم أن المخاطَب غير منكر لهذه الحقيقة، لأن الواقع يثبت تقلب الدنيا وعدم استقرارها على حال، ولكن الخطيب آثر إنزال المخاطَب غير المنكر منزلة المنكر أو المتردد لأن الحقيقة التي يعترف الجميع بصحتها لا تُحْدِثُ فرقا في أفعال المخاطَبين، فهم مُسَلِّمُونَ بهوان الدنيا قولا، ولكن أفعالهم وركونهم للدنيا واستسلامهم لفتنتها يضعهم في موضع المنكرين أو المترددين الشَّاكِّين.

ولأن المخاطَبين غارقون في الركون إلى الدنيا منكرون بأفعالهم لا بأقوالهم حقيقتها، فإن الخطيب يزيد من درجات توكيده لهذه الحقيقة، فلا يكتفي بالخبر الإنكاري، وإنما يعضده بوسائل لغوية أخرى منها تكرار (كم) الخبرية التي تفيد التكثير (كم عاينتم من أعاجيبها/ كم نصبت لكم من حبائلها)، وأفعال التفضيل (أفضل زاد/ أحسن عاقبة)، والنهي الذي حمل قوة استلزامية غير حرفية هي النصح (لا تلهينكم)، والاستفهام الذي دل على الحث على التدبر والاتعاظ والاعتبار بمصير السابقين (أين الملوك الذين بنوا المدائن...؟)، والطباق (الطاعة/ المعصية، الحلو/ السم، السعة/ الضيق، العز/ الذل/ الحياة/ الفناء)، وتكرار حروف المد خاصة الواو والألف التي تدل على استغراق المعتمدين على الدنيا فيها ونسيانهم لحقيقتها، والجناس الناقص (البلاد/ التلاد)، والسجع باستعمال فواصل: الهاء والدال واللام والنون والباء وغيرها، وتكرار المرادفات (التقوى/ الطاعة، يدنيكم/ يزلفكم، أفضل/أحسن، الزينة/ الخدع/ الفواتن/ اللذات/ الشهوات/ المتاع، قليل/ حين/ يزول، جانح/ معتمد، بنوا/ شيدوا، قنصت/ طحنت/ أهلكت/ عضت)، والالتفات من ضمير المخاطَب إلى ضمير الغائب لإيقاظ النفوس وتنبيه الخواطر (أوصيكم، أحضكم، تلهينكم، نصبت لكم.../ بنوا، شيدوا، أعدوا، ملكوا...)، والاستعارة (مزجت لهم سما/ طحنتهم بكلكلها/ نصبت لكم من حبائلها/ عضتهم بأنيابها)، والاقتباس الذي فصلت النظر فيه سابقا. نضيف لكل ما سبق ما يسمى بالقياس الضمني فالخطيب حين تحدث عن مكر الدنيا وتقلبها، ضرب

مثلا بالملوك الذين عاضتهم الدنيا بالسعة ضيقا وبالحياة موتا وبالعز ذلا وافتقارً، وضرب المثل بهؤلاء وهم من هم في الدنيا قياس لمن هم أدنى منهم رتبة ومكانة وقوة وملكا، فإن لم يسلم الملوك من تقلب الدنيا رغم عزتهم، فكَيف يَسْلَمُ من هم أقل منهم شأنا؛ فكأن القياس ينبني وفق هذه السُّلَّميَّة:

الملوك يموتون على قوتهم وشدتهم وبأسهم

ما دونهم من الناس قوة وشدة وبأسا يموتون

إن نتيجة الخطبة هنا تتحقق من خلال تنصيص الخطيب على وقوع الموت على الأعلى، الذي يدل على وقوع الموت على الأدنى ضمنا، هكذا يسعى الخطيب للاستفادة من المعرفة المخزونة عند المخاطَبين، ويعول على ذكائهم وفطنتهم لتحقيق التبليغ في الخطبة.

إن الموت هنا باعتباره حجة واقعية بدهية ليست إلا تمهيدا لما يريد الخطيب إيصاله للمخاطَب، فإذا كان الموت حقيقة، فلابد للميت أن يحاسب، ومادام سيحاسب فلابد أن يسأل، وإذا كان سيسأل فلابد أن يُعِدَّ جوابه أمام السائل، إن هذا التسلسل يرمي لغاية وحيدة هي حسن القيام بمهمة الولاية وعدم الركون لزيغ الولاية والحكم والسلطة.

إن الخطيب يسعى لتحقيق الاستجابة الفعلية عند المخاطَبين، لذلك فهو يحاصرهم ببناء خطاب حجاجي متماسك يشد بعضه بعضا، حتى لا يجد المخاطَب بُدّاً من التسليم بحجيته وصحته، وهو إذ يفعل هذا يستند على السلطة الاجتماعية التي يمتلكها كونه خطيبا والآخرون مخاطَبين، وهذه السلطة الاجتماعية تجعله مرجعا لمعرفة الصواب والخطأ.

كانت هذه مجمل الخطط التي صدر عنها خطاب واصل بن عطاء، وهي خطط كما ذكرت سابقا يستند بعضها على بعض لتحقيق حجية الخطبة وتأثيرها، بدءا بالخطة التلميحية فالتضامنية وانتهاء بالإقناعية التي طغى وجودها على الخطتين الأُخريين.

- معايير غرايس في خطبة واصل:

يؤسس غرايس الخطاب عامة على معايير أربعة هي: معيار الكم (Quantity)، ومعيار الكيف (Quality)، ومعيار الملاءمة (Relation)، ومعيار الطريقة (Manner). بالإضافة إلى هذه المعايير [14]، ويشير غرايس إلى معيار آخر يختزله في قوله: كن مهذبا / مؤدبا (Be polite) الذي شرحته أكثر روبن لايكوف.

إن هذه المعايير الخمسة إذا توفرت في خطاب ما ضمنت تحقق الإبلاغية فيه، وهو ما توفر في خطبة واصل بن عطاء، فكل هذه المعايير لها وجود صريح أو مضمر، وهو ما جعل هذه الخطبة يطير ذكرها في الآفاق، وجعل النقاد يثنون عليها ثناء كبيرا ويعتبرونها من أمهات الخطب التي ينبغي لكل صاحب صنعة كلام أن يحذو حذوها في البلاغة وإحكام الصنعة وحسن الترتيب. وسأفصل مظاهر حضور هذه المعايير في خطبة واصل بن عطاء في ما يأتي:

- معيار التأدب: كان حاضرا في الخطبة من خلال عناصر كثيرة، أهمها اختيار الخطيب لمواقع الخطاب وخططه المناسبة لسياق الحال، فقد كانت الخطة التوجيهية غير حاضرة صراحة، ولكنها كانت تحكم كل مواقع الخطاب التي يصدر عنها الخطيب، وغيابها تصريحا وحضورها ضمنا كان من باب تأدب الخطيب مع المخاطَب الرئيس في هذه الخطبة وهو والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فالوالي حاكم والخطيب جزء من رعية الوالي، ولأن من أخص خصائص الخطب مراعاة مقامات الناس الاجتماعية ومخاطبتهم بحسبها، فإن التوجيه المباشر لو اعتمده الخطيب في هذه الخطبة لربما قاد إلى عكس النتائج المتوخى تحقيقها، فسلطة الوالي الاعتبارية لا تسمح للخطيب بأن يعتمد الخطة التوجيهية، ولذلك كان من حسن إحكام الصنعة ومن الذكاء والحصافة أن يصدر الخطيب عن مواقع أخرى تؤدي إلى الهدف نفسه، ولكنها تراعي مقام الوالي وسط حاشيته وأمام رعيته، ولهذا حضرت الخطط التضامنية والتلميحية والإقناعية التي كان الهدف منها التوجيه والنصح في الأخير.

  حضر معيار التأدب أيضا في إشراك الخطيب نفسه مع المخاطَب، فهو لا يستثني نفسه من فتنة الوقوع في شَرَك الدنيا، وفي هذا الإشراك نوعٌ من التأدب، ووصلٌ لحبال التواصل النفسي بين الخطيب ومخاطَبيه، فالخطيب هو جزء من الناس الذين يخاطبهم، إنسان مثلهم يُفْتَنُ ويقاوم وينصح لنفسه ولغيره.

---

[14] - شرح غرايس هذه المعايير باستفاضة في محاضرته "المنطق والمحادثة"، يمكن العودة إليها في كتابه الذي شرح فيه هذه المبادئ أو المعايير ص:45 إلى 58.

– h.p.grice – studies in the way of words – lecture: logic and conversation.

كما أن تلوين الخطاب بين أمر ونهي يفيدان النصح والتحذير، وخبر تختلف درجات التوكيد فيه، ومختلِف الأساليب البلاغية كان أيضا مما عزز حضور هذا المعيار في الخطبة، فالخطيب يلون خطابه فيرققه حينا ويذكِّر بسعة رحمة الله وعونه، وأحيانا يرجُّ النفوس رجًّا بذكر الموت وتقلبات الدنيا، كل هذا لأنه يعرف أن النفس البشرية تتقلب مشاعرها بين خوف ورجاء، وخشية ومحبة، فهو لا يبث اليأس في النفوس، ولكنه في الآن نفسه لا يصل حبال الأمل الكاذبة الخادعة، ولكنه يجعل في خطبته نصيبا من هذا ذاك.

- معيار الملاءمة: يتعلق هذا المعيار بمناسبة ما يقدمه الخطيب من معلومات لسياق الحال الذي يوجد فيه، ولقد ذكرت سابقا أن واصل بن عطاء كان من جملة من خطب بين يدي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز حين قدم واليا على العراق، فبعد أن تلقى التهاني من الخطباء الآخرين، آثر واصل أن يقصر خطبته على الوعظ والإرشاد والتحذير من مغبة الوقوع في شرك الدنيا، ونسيان الآخرة، وقد يبدو هذا للوهلة الأولى غير مناسب لسياق الحال، فالمقام مقام تهنئة، وليس مقام ذكر لفتن الدنيا وغدرها وحث على التمسك بالتقوى، ولكن الفاحص سيدرك أن هذه المعاني كانت شديدة الملاءمة لهذا السياق، فالوالي وهو ينتشي بنشوة الولاية والنصر والغلبة، يحتاج إلى من يذكره بحقيقة كل هذا، فما هو إلا سراب زائل ينتهي بقدوم هاذم اللذات: الموت، وفي هذا التذكير نكتة تكتب بماء الذهب، فمعرفة المخاطَب بزوال ما يحتفي به، أدعى لإقامة الحق والحكم بين الناس بميزان العدل والقسط، ويبدو أن الوالي أدرك هذه الدعوة المضمرة، فَكُتُبُ الأدب تذكر أنه سُرَّ كثيرا من خطبة واصل، وأنه أجزل العطاء له أكثر من الخطباء الآخرين، ربما لأنه أدرك صدق الخطبة وحرص الخطيب على المخاطَب، فهو لا يغريه بفتنة الحكم ونشوة السلطة، ولكنه يفتح عينيه حتى يدرك حقيقة الأمور.
- معيار الكم: إن هذه الخطبة تقدم القدر المناسب من المعلومات، فزمنها يمكن أن نخمن أنه لم يتجاوز عشر دقائق، وهو زمن قصير راعى فيه الخطيب طبيعة المخاطَبين، فالوالي أشغاله كثيرة ولا مكان للإطالة أو الإطناب، ولهذا فإن واصل تخير ألفاظه القليلة المغدقة، كما أن الخطيب التزم بتقديم معلومة واحدة جعلها بؤرة الخطبة المعنوية، وجعل المعاني الأخرى التي ذكرها خادمة لها، فالمخاطَب لا يتشتت ذهنه لأن الخطبة تتأسس على وحدة عضوية تمسك بتلابيبها فتجعلها كُلاً لا يتجزأ. كما أن هذه المعلومة التي قدمها الخطيب (الدعوة للتقوى تجنبا للدنيا وفتنها الخادعة) هي من المعلومات البدَهية المسلم بها عند المخاطَب،

ولكن الانغماس في الدنيا يدفع الخطيب إلى الاحتجاج بحجج منطقية واقعية علَّه يزيح الغشاوة التي غطت أعين المخاطَبين فأنستهم سبب خلقهم.

وقد ساهم الإيجاز بالحذف أيضا في تعزيز حضور معيار الكم في الخطبة، ومن نماذجه:

موضع الحذف	بلاغته
- أوصيكم عباد الله	— حذف أداة النداء (يا)، ولعل وراء الحذف غايتين هما: أن الخطيب يريد أن يحقق كمال الاتصال بينه وبين المخاطَبين فيحذف أداة النداء، وأن الخطيب يوحي برغبة الخطيب الكبيرة في ذكر الغاية من خطبته وهو الدعوة إلى التقوى.
- وأهلكت من جانح جنح إليها، ومعتمد اعتمد عليها.	— حذف (كم) من الجملة الأولى، والتقدير: كم أهلكت من جانح جنح إليها، وحذف (كم والفعل) من الجملة الثانية، والتقدير: وكم أهلكت من معتمد اعتمد عليها. وفي هذا الحذف كمال بلاغة، فالمخاطَب مدرك للمعنى مع وقوع الحذف، ولذلك كان الذكر مناط إطناب لا داعي له، فبين الجمل كمال اتصال يمنع المخاطَب من الوقوع في عدم الفهم. كما أن عدم تكرار (كم والفعل) فيه احتراز من الوقوع في الملل والرتابة التي قد تقطع حبل التواصل بين الخطيب ومخاطَبيه.
- فتزودوا عافاكم الله	— حذف الخطيب لفظ (التقوى)، والتقدير: تزودوا بالتقوى عافاكم الله. وقد كان الحذف أبلغ من الذكر في هذا الموطن، أولا لشدة وضوح المحذوف ومعرفة المخاطَب له، وثانيا لتشويق المخاطبين لمعرفة المحذوف الذي أخر الخطيب ذكره في الجملة التي أعقبت الجملة الأولى: فإن خير الزاد التقوى.

كما كان لحضور الاستعارة الدور الكبير في تكثيف معاني الخطبة واختزالها اختزالا غير مسف ولا مخل بإبلاغية الخطبة، يقول الجرجاني عن الاستعارة: "ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها، أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر"[15]، وقد كانت الاستعارة من أخص الأدوات التي توسل بها واصل بن عطاء في خطبته، وهي زيادةً على وَسْمِهَا الخطبةَ بالبهاءِ والعُلُوِّ والجمالِ، فإنها أيضا اختزلت الكثير من المعاني في القليل من الألفاظ، فاستعارات مثل: كم نصبت لكم من حبائلها/ أذاقتهم حلوا/ مزجت لهم سما/ قنصتهم بمخلبها/ طحنتهم بكلكلها/ عضتهم بأنيابها، تشترك جميعها في نقل صورة قبيحة عن الدنيا، فهي تتصيد ضحاياها ثم تتخلى عنهم بعد أن تسلبهم سلامة قلوبهم وصفاء إيمانهم، وهي معانٍ لم تكن لتتضح عند المخاطَب لولا استعمال الاستعارة من قبل الخطيب.

[15] - عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة في علم البيان - ص:40.

- معيار الكيف: كانت كل المعاني التي قدمها الخطيب في خطبته صادقة، فالخطيب مجانب تماما للكذب وكل ما يتصل به، لذلك نجد أنه أسس خطبته على حجج واقعية لا يماري فيها اثنان، فمعلومة فتنة الدنيا وتقلبها استدل عليها الخطيب بما يعاينه الناس مرارا في حياتهم، فكم أنهى الموت من مُلْكٍ، وكم آذن بزوال سلطة السلاطين، وهي حجةٌ مُعَايَنَةٌ لا يمكن لأحد أن ينكرها، لأنها واقع مكرر نشاهده يوميا، وتعتبر الحجة بالمعاينة أكثر الحجج تأثيرا، لأنها مسلمة لا مراء فيها، وقد قال العرب قديما: ليس من رأى كمن سمع.[16]

وقد كان للاقتباس الذي طغى على الخطبة كلها - إذ لا تكاد تخلو فقرة من فقرات الخطبة من اقتباس قرآني - أثره الكبير على حجية الخطبة ومصداقيتها، فَلِلْكَلِمَةِ القرآنية وقعها ووزنها عند المخاطبين بحسب خلفيتهم الثقافية، فهم مُسْلِمُونَ معتقدون بسلطة القرآن الكريم، وقد استغل واصل حِفْظَهُ لكتاب الله عز وجل، فجعله من أهم الأسباب التي اتخذها ليضفي على خطبته مصداقية وشرعية.

- معيار الطريقة: جاءت خطبة واصل بن عطاء واضحة، شديدة التنظيم، مُحْكَمَةُ التماسك، موجزة الألفاظ مُغْدِقَةُ المعاني، وقد تيسر هذا للخطيب من خلال تلويناته الأسلوبية، فلغة الخطبة تتراوح بين الإخبارية المباشرة، والمجاز بكل أنواعه، فكل المعاني الرئيسة التي ذكرها الخطيب في خطبته أوردها من خلال طريقين هما:

	الطريقة المباشرة	الطريقة غير المباشرة
1. المعنى الأول: وجوب التقوى.	أوصيكم بتقوى الله والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته، وأحضكم على ما يدنيكم منه ويزلفكم لديه.	إن تقوى الله خير زاد
2. المعنى الثاني: الحذر من الدنيا.	لا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وخدعها، وفواتن لذاتها، وشهوات آمالها. فإنه متاع قليل ومدة إلى حين، وكل شيء منها يزول.	كم نصبت لكم من حبائلها...أذاقتهم حلوا، ومزجت لهم سما...قنصتهم بمخلبها، وطحنتهم بكلكلها، وعضتهم بأنيابها.

إن تنويع طرق التبليغ هنا، تبين زيادة حرص الخطيب على تحقيق الهدف من خطبته على تنوع مخاطَبيه، ففيهم العالم الذي يدرك المعنى على تعقيده، وفيهم البسيط الذي لا يدرك إلا ما ظهر من المعاني وانبسط من غير تزويق ولا تنميق.

يتضح المعيار أكثر في تجنب الخطيب لكل ما يمكن أن يقطع حبل التواصل بينه وبين المخاطَبين، ويُوقِعُ كلامه في الغموض والإلباس، لذلك نجده حريصا طوال الخطبة على الاحتراز من كل كلمة فيها راء،

[16] - فصلت الكلام عن هذا عند الحديث عن مواقع الخطبة وخططها.

فالخطيب كان يعاني من لثغة شديدة في حرف الراء، وهذا العيب النطقي استطاع الخطيب لفصاحته وسعة علمه بالعربية أن يتجاوزه، وذلك بتجنب كل الكلمات التي فيها راء، وإذا تتبعنا مفردات الخطبة وجدنا ما يأتي:

مكان الكلمة	الكلمة التي ليس فيها راء	عوضها
الاستهلال	الباقي	الآخر
	علا	ارتفع
	دنو	قرب
	مشيئته	إرادته
	لا معقب	لا راد
	لا دافع	لا رافع
	سلطانه	جبروته
	فضله	رحمته
	حبة	ذرة
	مثيل	شريك
	نبيه	رسوله
	بعثه	أرسله
	مألكته	رسالته
	أنبيائه	رسله
الوسط	يدنيكم ويزلفكم	يقربكم
	أفضل	خير
	المعاد	الآخرة
	لا تلهينكم	لا تغرينكم
	عاينتم	نظرتم
	جانح	راكن
	جنح	ركن
	التلاد	الميراث
	كلكلها	صدرها
	اللحود	القبور
	لا تعاين	لا ترى
	معالمهم	آثارهم
	نبسا	ركزا
	كتاب الله	القرآن الكريم
	تُلي	قُرِئَ
الخاتمة	القوي	الرحيم
	بسم الله الفتاح المنان	بسم الله الرحمن الرحيم
	الغوي	الرجيم

الكتاب الحكيم	القرآن الكريم
أستعتب	أستغفر

كانت هذه بعض الألفاظ التي استطعت تتبعها في خطبة واصل، والتي تثبت شدة رغبته في المحافظة على سلطته المعرفية أمام المخاطَبين، لذلك فقد سعى بكل ما أوتي من بلاغة وصنعة إلى أن يزيل كل ما يحول بينه وبين مخاطَبيه، يقول الجاحظ: "ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتَّى لسَتره والراحة من هُجْنَتِه، حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمَّلَ"[17].

إن الخطيب هنا بمجانبته لحرف الراء الذي يلثغ فيه، يؤكد أن من أخص خصائص الخطيب المفوّه أن يسعى إلى إقامة ألفاظه بحسن إقامة حروفها، وأن حسن المنطق وصحته من صحة الخطبة وحسنها، فقلوب المخاطبين لا تميل للخطيب الذي يلثغ، فما بالك بمن يخطئ ويلحن في كلامه كما نعاين في زمننا هذا.

وقد حضر معيار الطريقة أيضا في الخطبة من خلال النظام الذي يحكم بنية الخطاب الداخلية، فالخطيب بدأ خطبته بالتذكير بعظمة الله عز وجل وجلاله، الذي يستوجب طاعته من خلال التمسك بالتقوى، والتمسك بالتقوى يقتضي أخذ الحيطة من الدنيا وفتنتها، ثم تُخْتَمُ الخطبة بتكرار المعنى الأول وهو التذكير بوجوب طاعة الله العظيم. إن هذا الخيط الناظم لأجزاء الخطبة جعلها واضحة مكشوفة المعاني أمام المخاطَبين، فكل معنى يقود للمعنى الذي يليه من غير انقطاع.

- آليات الاتساق والانسجام في خطبة واصل بن عطاء:

إن تأمل هذه الخطبة يدل دلالة مباشرة على أنها خطاب متماسك، وكل أدوات الربط حاضرة فيه، سواء تعلق الأمر بالعاملية أو الإسناد أو التقديم أو التأخير أو الذكر والحذف، أو الإحالة عبر الضمائر الظاهرة والخفية

[17] - الجاحظ - البيان والتبيين - الجزء الأول - ص:15.

والمتصلة والمنفصلة وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة، أو اعتماد الروابط الحرفية كحروف الشرط والنفي والتوكيد والاستئناف والإضراب والجر...

هكذا ندرك أن النص شبكة من المعاني المتداخلة التي تماسكت بفعل آليات الترابط المختلفة، التي سأحاول حصرها فيما يأتي:

وسائل الربط	أمثلة من النص
حروف الجر	على، اللام، عن، الباء، إلى، من، في، حتى
حروف العطف	الفاء والواو، كم
أحرف التنبيه والاستفتاح	يا
اسم الاستفهام	أين
أحرف التوكيد	أن، إن، نون التوكيد المشددة
حروف الاستثناء	إلا
حروف النفي	لا، لم.
الأسماء الموصولة	الذي، ما، الذين
حرف الإضراب	بل
أداة الترجي	لعل
اسم الإشارة	أولئك
الضمير المتصل والمنفصل	الهاء، هو، هم
الإحالة	جاءت في النص بنوعيها، القبلية والبعدية، النصية والسياقية.
التكرار	سواء تعلق الأمر بتكرار اللفظ نفسه آو ما يشابهه
الإضافة	تربط بين المضاف والمضاف إليه ومنها: في دنوه، في علوه، بلا نهاية، على إلهيته، لحكمه، لقضائه، لعظمته، لسلطانه، مألكته، ملائكته، بطاعته، لمعصيته، بزينتها، خدعها، من حبائلها، من أعاجيبها، بمواعظه، آياته، بيناته، العذاب الأليم، جنات النعيم...
التعدية	بين الفعل والمفعول به ومنه قول الخطيب: أتم مشيئته، أوضح حكمته، يقبل التوبة، فبلغ مألكته، أوصيكم، أحضكم، بنوا المدائن، شيدوا المصانع، أوثقوا الأبواب، كائفوا الحجاب، أعدوا الجياد، ملكوا البلاد، استخدموا التلاد، قنصتهم، طحنتهم، عضتهم، عاضتهم...
الإسناد	بين المبتدأ والخبر ومنه قول الخطيب: الْحَمْدُ: مُبْتَدَأٌ مَرْفُوعٌ بالابتداء وَعَلَامَةُ رَفْعِهِ الضَّمَّةُ الظَّاهِرَةُ فِي آخِرِهِ، لِأَنَّهُ اسْمٌ مُفْرَدٌ. لِلَّهِ: اللَّامُ حَرْفُ جَرٍّ مَبْنِيٌّ عَلَى الْكَسْرِ، لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ، وَلَفْظُ الْجَلَالَةِ (الله): اسْمٌ مَجْرُورٌ بِاللَّامِ وَعَلَامَةُ جَرِّهِ الْكَسْرَةُ الظَّاهِرَةُ فِي آخِرِهِ لِأَنَّهُ اسْمٌ مُفْرَدٌ.

	وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ خَبَرٌ وَالْجُمْلَةُ مِنَ المبتدأ وَالْخَبَرِ لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ ابْتِدَائِيَّةٌ. القديم بلا غاية، الباقي بلا نهاية: خبران متعلقان بمبتدأ محذوف تقديره: هو. هو السميع العليم: «هُوَ» ضمير فصل «السَّمِيعُ» خبر أول «الْعَلِيمُ» خبر ثان والجملة الاسمية تعليل، وهو متعلقان بجملة " إن الله". بسم الله الفتاح المنان: بسم: الباء: حرف جر، اسم: اسم مجرور بحرف الجر (الباء) وعلامة جره الكسرة في آخره، أما الجار والمجرور (بسم) فمتعلقة بفعل محذوف متأخر مناسب للمقام، الله: اسم الجلالة عَلَمٌ دال على الله عز وجل، مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة، الفتاح المنان: نعتان لـ(الله) مجروران وعلامة جرّهما الكسرة الظاهرة على آخرهما. يلحق بهذا الجمل التي بدأت بناسخ حرفي مثل: إنه متاع قليل، ومدة إلى حين، إن أفضل الزاد التقوى، إن أحسن قصص المؤمنين، وأبلغ مواعظ المتقين كتاب الله، إن الله... فالناسخ يربط بين الاسم وخبره.
المطابقة والمقابلة	بين الألفاظ: القديم/ الباقي (بمعنى الأول والآخر)، زمان/ مكان، تواضع/ عظمته، ذل/ سلطانه، السعة/ الضيق، العز/ الذل، الحياة / الفناء، اللحود/ المساكن، الحلو/ السم. بين العبارات: علا في دنوه / دنا في علوه، المجانبة لمعصيته/ العمل بطاعته، مزجت لهم سما/ أذاقتهم حلوا، أدخلنا وإياكم جنات النعيم/ أعاذنا الله وإياكم من العذاب الأليم.

ومن الروابط الأخرى التي ضمنت تماسك الخطبة نجد:

- حروف الجر:
  - من: تأتي للدلالة على الغاية من الزمان والمكان، أو التبيين، أو التبعيض. ومنها قول الخطيب: أحضكم على ما يدنيكم منه/ كل شي منها يزول/ كم عاينتم من أعاجيبها/ كم نصبت لكم من حبائلها/ عاضتهم من السعة ضيقا ومن العز ذلا ومن الحياة فناء/ لا تحس منهم من أحد/ جعلني الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه/ ممن يستمع القول فيتبع أحسنه/ أعوذ بالله من الشيطان الغوي/ أعاذنا الله وإياكم من العذاب الأليم.
  - إلى: تفيد انتهاء الغاية في المكان والزمان، ومنها: مدة إلى حين/ جانح جنح إليها.
  - اللام: تدل على الملك والاختصاص والغاية، ومنها قول الخطيب: لا معقب لحكمه/ لا دافع لقضائه/ تواضع كل شيء لعظمته/ ذل كل شيء لسلطانه/ نصح لأمته/ المجانبة لمعصيته/ أحسن عاقبة لمعاد/ يعمل لحظه.

- على: تدل على المجاوزة والاستعلاء والظرفية، ومنها قول واصل: فدل على إلهيته/ صلى الله على محمد وآله/ أعلى صلاة صلاها على صفوة أنبيائه/ أحضكم على ما يدنيكم منه/ معتمد اعتمد عليها.
- عن: تدل على المجاوزة والبعدية والاستعلاء، ومنها: علا عن صفات كل مخلوق/ تنزه عن شبه كل مصنوع/ يقبل التوبة عن عباده.
- في: تدل على الظرفية والسببية، ومنها قول الخطيب: الذي علا في دنوه/ دنا في علوه/ أقول ما فيه أعظكم.
- الباء: من معانيها الإلصاق والاستعانة والمصاحبة والمقابلة والظرفية، ومنها قول الخطيب: القديم بلا غاية/ الباقي بلا نهاية/ لا تحيط به العقول/ أشهد...بإخلاص نية/ بعثه إلى خلقه بالبينات/ أوصيكم...بتقوى الله والعمل بطاعته/ لا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها/ أعوذ بالله القوي/ بسم الله الفتاح المنان/ بالكتاب المبين.
- حتى: تدل على انتهاء الغاية، وتكون عاطفة أيضا ومنها قول الخطيب: نصح لأمته حتى أتاه اليقين.

- حروف العطف:

- الواو: لمطلق العطف، وقد كثر ذكرها في النص ومنها قول الخطيب: ودنا في علوه/ ولا يحيط/ ولا يحويه/ ولا يؤوده/ وعد له/ وأتم/ وأوضح/ وذل/ ووسع/ وأشهد...
- الفاء: تدل على الترتيب والسببية، ومنها: فلا يحويه/ فأحسن كل / فدل على / فسبحانه/ فلا تبلغه/ فيحلم/ فبلغ مألكته...
- بل: تفيد الإضراب والاستدراك، ومنها قول الخطيب: بل أنشأه ابتداعا.
- لا: تفيد النفي، ومنها: بلا غاية/ بلا نهاية/ لا يحويه/ لا يحيط/ لا يؤوده/ لا معقب لحكمه/ لا إله إلا الله/ لا تعاين/ لا تحس...

- أحرف التنبيه والنداء: يا التي تستعمل للنداء والتنبيه ومنها: يا أولي الألباب.
- أدوات الاستفهام: منها قول الخطيب: أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحجاب، وأعدوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد؟ وهو استفهام يدل على التأكيد والتقرير، فالخطيب يؤكد حقيقة أن الموت ينهي ملك الملوك، وفي هذا دعوة للاتعاظ والاعتبار.

- حروف التوكيد: (أن وإن) أكد بها الخطيب معاني هي: وحدانية الله عز وجل وجلاله، والاعتقاد بنبوة سيدي محمد صلى الله عليه وسلم، وأفضلية التقوى، ومن أمثلة التوكيد في الخطبة: أشهد أن لا إله إلا الله/ أشهد...أن محمدا عبده ونبيه/ إن تقوى الله أفضل زاد/ إن أحسن قصص المؤمنين/ إن الله هو السميع العليم.
- حروف الاستثناء: حضرت من خلال حرف إلا في قول الخطيب: أشهد أن لا إله إلا الله/ أصبحوا لا تعاين إلا مساكنهم/ لا تجد إلا معالمهم.
- الإحالة: أدت الإحالة النصية خاصة دورا كبيرا في الربط بين أجزاء النص ومن نماذجها في النص:

تركيز الخطيب على الضمائر المتصلة خاصة، والمنفصلة والمستترة لضمان نصية النص، فقد أدت الهاء باعتبارها ضميرا متصلا دورا كبيرا في شد لحمة الخطبة، والربط بين أجزائها المختلفة، وقد أحالت الهاء على اسم الجلالة 'الله'، وهو بؤرة هذه الخطبة دلاليا، ومن نماذجها: علا في دنوه/ دنا في علوه/ لا يحويه زمان/ لا يحيط به مكان/ لا يؤوده حفظ/ أنشاه/ عدله/ خلقه/ مشيئته/ حكمته/ إلهيته/ سبحانه/ حكمه/ قضائه/ عظمته/ سلطانه/ فضله/ لا يعزب عنه...

أما الضمير المستتر فهو على استتاره كان له دور كبير في إظهار التماسك بين أجزاء الخطبة، ومنه قول الخطيب: علا في/ دنا في/ لا يحيط/ عدَّ/ أتم/ أوضح/ فدل/ وسع... فكل هذه الأفعال يربط بينها ضمير مستتر تقديره (هو)، الذي يحيل على الله عز وجل، وكل هذه الضمائر أدت دورا مهما في حضور الربط من خلال الإحالة النصية القبلية.

نضيف لهذين الرابطين، رابطا آخر هو الضمير المنفصل (هو) في قول الخطيب: هو السميع العليم/ قل هو الله أحد، فالضمير يحيل إحالة بعدية على الله عز وجل.

أما عن الإحالة غير النصية السياقية فقد أحال الخطيب على هلاك الملوك عامة، ولكنه من خلال استعمال أسلوب الاقتباس نجد أنه أحال على قصص الأقوام الذين أهلكهم الله لكفرهم، وفي هذه الإحالة تكثيف لحضور البعد الحجاجي في النص، فالمخاطَب عارف بقصص هؤلاء، وأنهم كان مضرب المثل في القرآن الكريم في الشدة والبأس والبنيان والقوة، ولكن جبروتهم وتعنتهم وكبرهم قادهم إلى الهلاك والبوار والخسران، وفي هذا وعظ خفي للوالي وحاشيته بأن لا يغتروا بملكهم، فالدنيا لا تدين بالولاء لأحد مهما علا شأوه.

- التكرار:

تكررت داخل الخطبة كلمات بألفاظها، كما تكررت أخرى بمعانيها، ومنها: (الله/ الباقي/ القديم/ سبحانه/ السميع/ العليم/ الفتاح/ المنان/ لا مثيل له/ حميد مجيد)، (عظمته/ سلطانه)، (مخلوق/ مصنوع)، (خالصه/ صفيه)، (العقول/ الأفهام)، (حق/ صدق/ إخلاص)، (البينات/ الهدى/ دين الحق)، (صفوة/ خالص)، (أفضل/ أتم/ أزكى/ أجل/ أعلى)، (تقوى الله/ طاعته/ المجانبة لمعصيته)/ (يدنيكم/ يزلفكم)، (الخدع/ الفواتن/ الشهوات/ اللذات/ الآمال)، (أفضل/ أحسن)، (قليل/ إلى حين/ يزول)، (بنوا/ شيدوا/ ملكوا/ أوثقوا/ كاثفوا/ أعدو/ استخدموا... فهي كلها مفردات تندرج ضمن حقل القدرة والقوة)، (قنصت/ طحنت/ عضت)...

بالإضافة إلى وظيفة التكرار في الربط بين أجزاء الخطبة وتوكيد المعاني في ذهن المخاطَبين، إلا أنه دل على شيء آخر وهو إثبات الخطيب لسَعَة مخزونه اللغوي، فهو يغرف منه كما يشاء، كأن المعجم ماثل أمامه يتخير منه كما شاء.

- التضام:

الخطبة وحدة متكاملة رغم ما يبدو من تعدد في معانيها، إذ يمكن تحديد وحدات معنوية كبرى تحقق التجانس فيها، فمفردات النص تجمعها ثلاث موضوعات هي: عظمة الله عز وجل، وعظمة نبيه صلى الله عليه وسلم، وفتنة الدنيا، وفضل التقوى، وهي كلها معانٍ يشد بعضها بعضا، ويقود بعضها إلى بعض، ولكن الخيط الناظم بينها هو الدعوة الخفية من الخطيب للمخاطَب بعدم الاغترار بالمنصب والملك، والثبات على المحجة البيضاء..

أما عن آليات الانسجام وحضورها في النص، فإن خطبة واصل بن عطاء خطبة منسجمة نظرا لقبولها للفهم والتأويل من خلال مبادئ عدة أجملها في:

- مبدأ السياق: يتبدى من خلال وضوح العناصر الآتية:
  - المرسل: واصل بن عطاء.
  - المرسل إليه: يشمل قراء الخطبة عامة، والمتلقي الخاص الذي وجهت له الخطبة (الوالي ومن حضر معه).
  - موضوع الرسالة: الدعوة لتقوى الله عز وجل والتعلق بالآخرة.
- مبدأ التأويل المحلي: يعلمنا هذا المبدأ أن نستدعي كل المعلومات التي تحد من طاقتنا التأويلية حتى ندرك السياق المحدد للنص، فالنص يستدعي من المتلقي استحضار مجموعة من الأحداث التاريخية

التي ارتبطت بإنتاج النص، أهمها تلك المرتبطة باجتماع الناس والخطباء أمام الوالي لتهنئته بتولي العراق، وهو سياق تاريخي يوحي بطبيعة الخطبة ومعانيها، ونوع المخاطَبين ودرجة فهمهم، وأن من هؤلاء المخاطَبين فئة خاصة تمتلك ذائقة فنية كبيرة، وباعا في صناعة الكلام.

- مبدأ التشابه: هذا النص يمثل جزءا من وحدة متكاملة هي خطب واصل بن عطاء التي فاضت جمالا ورقة وعذوبة، ولكنها تعتبر أجود الخطب التي أثنى عليها النقاد قديما وحديثا.
- مبدأ التغريض: إن الخطبة رغم تعدد وحداتها المعنوية ما بين التعظيم والتحذير والتنبيه والتذكير، إلا أنها تمثل كلا متحدا لا يخفى على المخاطَب غايته.

إن خطبة واصل خطاب مؤتلف، ونسق محكم البناء، ساهمت في صياغته عناصر مختلفة من تركيب وصرف ونحو وألفاظ وأصوات وغيرها، وكل هذه العناصر أضفت على الخطبة نصية محكمة فجعلت المخاطَبين أمام بناء دال لا إلغاز فيه ولا تعمية.

تركيب:

كان هذا تحليلا لبعض الأبعاد التداولية في خطبة واصل بن عطاء، وانطلاقا منه نخلص إلى عدة نتائج هي:

- أن اختيار الكلاعي لهذه الخطبة كان بقصد تعرف القارئ على نماذج ذات بلاغة عالية، تحضر فيها عناصر الحجاج المختلفة، وتراعي شروط إنتاج الخطاب.
- أن خطبة واصل بن عطاء عكست ما تحدث عنه الكلاعي من شروط نفسية ومعرفية ينبغي توفرها في من يتصدر لمهمة الخطابة.
- أن الخطبة على قصرها ضمت ملامح بلاغية وصرفية ونحوية وتركيبية وصوتية بديعة وحجاجية، كان القصد منها ضمان التأثير في المخاطَب.

- **لائحة المصادر والمراجع:**

*** القرآن الكريم برو اية ورش عن نافع.**

- **المصادر والمراجع العربية:**

1. ابن منظور (أبو الفضل): لسان العرب - دار صادر - بيروت: المجلد الأول.

2. التَّهانوي (محمد بن علي بن محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي) - كشّاف اصطلاحات الفنون - مكتبة لبنان - سنة النشر: 1996.
3. الجاحظ (عمرو بن بحر): البيان والتبيين - تحقيق: عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - سنة النشر: 1418هـ/ 1998م - الطبعة السابعة: المجلد الأول والمجلد الثاني.
4. الجرجاني (عبد القاهر) - أسرار البلاغة في علم البيان - تحقيق: عبد الحميد هنداوي - دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان - الطبعة الأولى - سنة النشر: 1422هـ/ 2001م.
5. الزمخشري (محمود بن عمر): أساس البلاغة - تحقيق: محمد باسل عيون السود - دار الكتب العلمية - لبنان - الطبعة الأولى - سنة النشر: 1419هـ- / 1998م: الجزء الأول والجزء الثاني.
6. الشهري (عبد الهادي بن ظافر) - استراتيجيات الخطاب - الجزء الأول - الطبعة الثانية 2015م / 1436هـ- دار كنوز المعرفة – عمان.
7. العسقلاني (أحمد بن علي بن حجر): لسان الميزان - اعتنى به الشيخ: عبد الفتاح أبو غدة - أخرجه وطبعه: سلمان عبد الفتاح أبو غدة - الجزء الثامن - مكتبة المطبوعات الإسلامية لبنان - الطبعة الأولى - سنة النشر: 1423هـ/ 2002م.
8. العكري (شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط - المجلد الثاني - دار ابن كثير لبنان - الطبعة الأولى سنة النشر: 1988م/ 1408هـ.
9. القزويني (الخطيب) - الإيضاح في علوم البلاغة - تحقيق: محمد السعدي فرهود وآخرون - دار الكتاب المصري القاهرة - الطبعة السادسة - سنة النشر: 1420هـ/ 1999م.
10. الكفوي (أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني) - الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية- تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري - مؤسسة الرسالة لبنان - الطبعة الثانية سنة النشر: 1419هـ/ 1998م.
11. الكلاعي (أبو القاسم محمد بن عبد الغفور) - إحكام صنعة الكلام - تحقيق: محمد رضوان الداية - دار الثقافة لبنان - طبعة 1966م.
12. المبرد (محمد بن يزيد): الكامل في اللغة والأدب: تحقيق: عبد الحميد هنداوي - من إصدارات وزراة الشؤون الإسلامية السعودية - المجلد الثالث - سنة النشر: 1419هـ/ 1998م.
13. المراكشي (عبد الله): الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: تحقيق: إحسان عباس ومحمد بن شريفة وآخرون - المجلد الرابع - دار الغرب الإسلامي تونس - الطبعة الأولى - سنة النشر: 2012م.